يسوع ابن الإنسان



جبران خليل جبران

يسوع ابن الإنسان

JESUS SON OF MAN
BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

❖ يسوع إبن الإنسان / جبران خليل جبران

❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

❖ الطبعة الأولى عام ٢٠٠٣ عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة

❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية دمشق ص . ب : ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١ - فاكس: ٥٦١١٣٢٤١

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام١٨٨٣ في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام ١٨٩٨، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان ١٩٠٢ بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض، وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام ١٩٠٥، وأتبعه عام ١٩٠٦ بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام ١٩٠٨ والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز١٩٠٨ حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة ١٩١٢ أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة ١٩١٢ بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة١٩١٦ كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام ١٩٢٠ أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام ١٩١٩ قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام ١٩٢٠ كتابه (العواصف)، وفي عام ١٩٢٣ نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام١٩١٨ باللغة الإنكليزية وأتبعه عام١٩٢٠ بكتاب (السابق) وعام١٩٢٣ صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة ١٩٢٥ التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام ١٩٢٦، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام ١٩٢٧، و(آلهة الأرض) عام ١٩٣٠، و(التائه) سنة ١٩٣١ وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع ١٩٣١ اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام١٩٢٩ حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكوّنات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أمــا بنيــة الأدب الجــبراني، فتتــألف مــن مزيــج مــن العنــاصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتـأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسـي وواقعـي وصوفـي وثـوري وحداثـي فـي الوقت نفسـه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هـذه الخيـوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسـان، الـذي لا يـراه محـور الكـون، ولـبَّ الوجـود وحسـب، بـل إنـه يرفعـه إلـى مصـاف الألوهيـة، إذ إنّ (الإنسـانية روح الألوهيـة علـى الأرض) علـى حـد تعبيره فـي نصـه (صـوت الشـاعر).وهـو يقـول فـي (نشـيد الإنسـان): (أنـا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضـب العنـاصر، ومثـل عمـود نـور منتصبـة بـين خرائـب بـابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن لا ولا فيها الهموم

فإذا هبّ نسيم لم تجئ معه السموم

ليس في الغابات حرّ لا ولا العبد الذميم

إنما الأمجاد سخف وفقاقيع تعوم

لم أجد في الغاب فرقاً بين نفس وجسد

فالهوا ماء تهادى والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ وتنشّفتَ بنور

وشربت الفجر خمراً في كؤوس من أثير

هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً وتَلَحَفّتَ الفضا

زاهداً فيما سيأتي ناسياً ما قد مضى؟

ومـن تجليـات رومانسـيته أيضـاً تغنّيـه الدائـم بـالحزن والألـم والوحـدة، وولَعُـهُ بمناجـاة الليـل والقمـر والبحـر والريـح والضبـاب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري – ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحون تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام ١٩١١ كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام١٩١٦ كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام١٩١١ بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة١٩١٧: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الـورق). فلغـة الـكــلام العاديـة لا يمكــن أن تصلــح للتعبـيـر عمــا يحسّــه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركـه جـبران فقـال: (ففـي العربيـة خلقـت لغـة جديـدة داخـل لغـة قديمـة، كـانت قد وصلت حدّاً بالغاً مـن الكمـال. لـم أبتـدع مفـردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجـال الشـعر هـو: (الشـيء الآخـر الأبعـد فـي الإنسـان، الشـيء الـذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

يسـوع ابن الإنسان

دراسة تحليليّة

يسـوع ابن الإنسان
في الرؤيا الجبرانيّة

لم يكن من المفاجئ أو المستغرب أن يصدر جبران عام١٩٢٨ كتاباً يخصّصه بكامله لرسم ملامح شخصيّة يسوع، لا بحسب الصورة التي وردت في الأناجيل المتعددة، أو التي رسخت في أذهان المسيحيين عبر العصور، ولكن بحسب ما يتناسب مع فكرته عن (النبوّة) ،وما ينسجم مع مفاهيمه الرئيسة عن (وحدة الوجود) و(الذات العظمى) و(الانسان الكامل).

فقد شكلّت شخصيّة يسوع هاجساً مهيمناً وطاغياً على فكر جبران، منذ بدايات تكوينه، لما تحمله هذه الشخصية من قيم الخير والمحبّة والفداء والتسامي. إلا أن الصورة النمطية التي تسبغ على يسوع

صفات الضعف و الوداعة والمسالمة، لم ترق لجبران، كما لم يرق له فصله عن منبته الإنساني بإلحاقه بعالم السماء لا عالم الأرض، وسربلته بالخوارق والمعجزات، بدءاً من معجزة ولادته، و وصولاً إلى معجزة قيامته. لأن (النبي) في الرؤيا الجبرانية، ليس سوى إنسان اغتنت تجاربه، واكتملت معارفه، وسمت نفسه حتى بلغ (ذاته العظمى). وبهذا المعنى فإن الناس جميعهم يمكن لهم أن يصيروا أنبياءً أو (مسحاء). ولذلك رفض جبران إلحاق صفة (ابن الله) بيسوع، وسمّاه (ابن الانسان)، ليس في هذا الكتاب وحده فحسب، بل في كتبه جميعها.

وفي الحقيقة، فإن الصورة التي رسمها جبران في هذا الكتاب ل(يسوع ابن الإنسان)، يمكن اعتبارها النسخة المكتملة أو الأخيرة لمجموعة من التخطيطات الأولية التي سبق له رسمها في كتاباته . وهو ما سنحاول أن نتبينه من خلال متابعتنا للظهورات المتعاقبة لشخصية يسوع في مؤلفاته السابقة.

ففي كتابه الأول (الموسيقا) الذي صدر عام١٩٠٥، نجده يستخدم تسمية (ابن البشر) لأول مرة، للدلالة على يسوع، إذ يقول: (وجاء في بدء مأساة ابن البشر، أن التلامذة سبّحوا قبل ذهابهم إلى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم، وكأني الآن اسمع نغم تلك التسبيحة صادراً من أعماق نفوس حزينة رأت ما سيحلّ برسول السلام[1]

[1] جبران-الموسيقا - مؤسسة علاء الدين - دمشق-٢٠٠٢ - صفحة٤٥

وبالرغم من أن جبران سيعيد استخدام مصطلح (ابن البشر) مرة ثانية، في كتابه الثاني (عرائس المروج/١٩٠٦) حين يقول: (فويل لكم إذ يأتي ابن(البشر) ثانية ويخرب أديرتكم ويلقي حجارتها في الوادي [٢] إلا أن الصورة النمطية ليسوع التي تظهره ذي طبيعتين: إلهية وإنسانية في الوقت نفسه، وتعتبره ابناً للرب الذي في السماء، لن تغيب أيضاً عن الخطاب الذي يضعه جبران على لسان بطله (يوحنا المجنون)، ولا عن خطاب جبران نفسه باعتباره راوياً للقصة. فهو يصف يسوع ب (الإله الإنسان) إذ يقول: (ومرّت الساعة ويوحنا يتألم مع (الإله الإنسان) بالجسد، ويتمجّد معه بالروح) [٣] وفي موضع آخر من القصة نفسها يخاطب يوحنا يسوع الناصري بصفته ابن الرب فيقول: (فهل يتمجّد أبوك السماوي بأن تلفظ اسمه الشفاه الأثيمة والألسنة الكاذبة؟ [٤]

ولتفسير هذا الجمع بين مفهوم (ابن البشر) وبين الصورة النمطية ليسوع في نص واحد ، يمكن لنا أن نذهب مذهبين: الأول منهما أن جبران ،في هذه المرحلة المبكّرة، لم يكن قد وصل بعد إلى وضع تصوّر متكامل عن مفهوم (ابن الانسان) أو (ابن البشر)، فبقي مفهومه متعالقاً مع التصوّر السابق عن شخصية يسوع. أما

---

[٢] جبران-عرائس المروج-مؤسسة علاء الدين-دمشق صفحة٧٦.

[٣] المرجع السابق-صفحة٧٣ .

[٤] المرجع السابق-صفحة٨٣.

المذهب الثاني، ففحواه أن البنية الفنية للقصّة هي التي فرضت هذا الجمع بين المفهومين، فبطل جبران (يوحنا المجنون) يخاطب رجال الدين وأهل القرية، ولذلك كان لا بدّ له أن يحاججهم بالانطلاق من مفهومهم الراسخ الذي يعلنونه دون أن يلتزموا بما يفرضه عليهم من سلوك وايمان.

وفي كتاب (دمعة وابتسامة) الذي صدر عام١٩١٤ نطالع نصاً شديد الأهمية بعنوان: (الطفل يسوع والحب الطفل [٥] وفيه يقرن جبران تصوّره عن يسوع بمفهوم (الحب) . فشعلة الحب التي تنير خلايا قلب الانسان الفرد، هي كالشعلة العظيمة المشعشعة التي تنحدر من الأعالي وتنير ظلمات الأمم جميعها لأن في النفس الواحدة عناصر وميولاً وعواطف لا تختلف البتة عن العناصر والميول والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشرية. وبذلك يضع جبران تفسيراً إنسانياً لمجيء يسوع، باعتباره استجابة للعناصر والعواطف المركوزة في أصل الجوهر الإنساني. ويعمّق جبران تفسيره هذا حين يرسم المهاد التاريخي لولادة يسوع، فاليهود كانوا بحاجة إلى مجيئه ليخلصهم من عبودية الأمم، والنفس الكبيرة في اليونان كانت ترى أن عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت ولم تعد تكفي لإشباع الحاجة إلى الروحيّات، أما في رومة فقد راحت ألوهيّة (أبولون) تتباعد عن العواطف، وجمال (فينيس) يقترب من الشيخوخة، وكان الإله (بان)

---

[٥] جبران-دمعة وابتسامة-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة١٦٨

يملأ نفوس الرعاة جزعاً، و(بعل) إله الشمس يضغط بأيدي كهّانه على قلوب المساكين والضعفاء. وهكذا فإن الأمم كلها كانت تشعر بمجاعة نفسية إلى تعاليم مترفعة عن المادة، وبميل عميق إلى الحرية الروحية التي تخوّل الإنسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل. وأمام هذه المجاعة النفسية كان لابدّ أن تتفتح شفاه الروح وتلفظ (كلمة الحياة) . هذه (الكلمة) التي تجسّدت وصارت طفلاً بين ذراعي ابنة من البشر. ويؤكد جبران على أن التحوّل الحاسم الذي اجترحه يسوع، يتجلى أساساً في انتزاع الألوهيّة من السماء، وجعلها في الانسان. فذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه الفقيرة قد انتزع بلطفه صولجان القوّة من المشتري وأسلمه للراعي المسكين المتكئ على الأعشاب بين أغنامه، وأخذ الحكمة من منيرفا برقته ووضعها على لسان الصيّاد الفقير الجالس في زورقه على شاطئ البحيرة، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من آبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطياً أمام الأبواب، وسكب الجمال بجماله من فينيس وبثّه في روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين، وأنزل البعل عن كرسي جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذي ينثر في الحقل البذور مع عرق الجبين. (٦)

وبعد أن نأى جبران بولادة يسوع عن عالم المعجزات والخوارق، ووضع لها تفسيراً إنسانياً ضمن مهادها التاريخي، ونزل بالألوهية من

(٦) المرجع السابق-صفحة١٧٠

السماء إلى الأرض، وجعلها في البشر، لاسيما الفقراء والبؤساء منهم، خطا خطوة أخرى نحو تغيير الملامح والصفات التي درج الناس على إلصاقها بشخص يسوع، لأن هذه الملامح والصفات لا تنسجم مع الصورة التي يجب أن يكون عليها (النبي) في المفهوم الجبراني. فالناس يرون في يسوع الناصري مولداً كالفقراء عائشاً كالمساكين مهاناً كالضعفاء مصلوباً كالمجرمين ، وكل ما يفعلونه لتكريمه هو البكاء والرثاء والندب، وعبادة الضعف في شخصه، والنبي لا يمكن أن يكون ضعيفاً، بل لا بد أن يكون قوياً ثائراً متمرداً. لذلك يكتب جبران نصاً بعنوان (يسوع المصلوب) في كتابه (العواصف) الذي أصدره عام ١٩٢٠، ليصحح هذه الصورة فيقول:

(منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع، ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوّة الحقيقية. ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجعاً، بل عاش ثائراً وصلب متمرداً ومات جباراً. لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين، بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الأجنحة المعوجّة. لم يجئ يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة، بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية. لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخش أعداءه ولم يتوجّع أمام قاتليه، بل كان حراً على رؤوس الأشهاد جريئاً أمام الظلم والاستبداد، يرى البثور الكريهة فيبضعها، ويسمع الشر

متكلماً فيخرسه، ويلتقي الرياء فيصرعه. لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها الأديرة والصوامع، ويستهوي الرجال الأشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً، بل جاء ليبث في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قوية تقوّض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين. (٧)

ولا ريب في أن مفردات (القوة) و(الثورة) و(التمرّد) و(الجبروت) و(العاصفة الهوجاء) وأفعال (يبضع) و(يخرس) و(يصرع) و(يقوّض) و(يهدم) و(يسحق)، الواردة في النص السابق، قد استقاها جبران من معجم (نيتشه) في كتابه (هكذا تكلم زارادشت)، الذي كان واقعاً تحت سطوته في الفترة التي كتب خلالها نصوص كتاب (العواصف).

وإمعاناً في إظهار الافتراق الحاصل بين شخصية يسوع كما يراها جبران، وبين صورته المرسومة في أذهان الناس، سيعمد جبران إلى كتابة قصة رمزية بعنوان (مساء العيد) (٨) ففي الوقت الذي يحتفل فيه الناس بيسوع (صاحب العيد) لابسين ملابسهم الجديدة، ومبدين سيماء البشر والحبور على وجوههم، ورائحة المآكل والخمور تنبعث من لهاثهم، يلتقي الراوي (جبران) بيسوع جالساً على مقعد

---

(٧) جبران- العواصف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة٦٧

(٨) المرجع السابق-صفحة١٢٦

خشبي في الحديقة العمومية. وعندما يسأله عن حاله يجيب: أنا غريب في هذه المدينة، وأنا غريب في كل مدينة أخرى! ففي الوقت الذي يحتفل فيه العالم باسمه، يطوف يسوع غريباً تائهاً في مغارب الأرض ومشارقها، باحثاً عن مأوى، دون أن يجد مكاناً يسند رأسه إليه، فليس بين الشعوب من يعرف حقيقته، لذلك بصرخ قائلاً : أنا الثورة التي تقيم ما أقعدته الأمم، أنا العاصفة التي تقتلع الأنصاب التي أنبتتها الأجيال، أنا الذي جاء ليلقي في الأرض سيفاً لا سلاماً . وفي هذا النص يستخدم جبران قول يسوع الوارد في الاصحاح الثامن من انجيل متى (للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وليس لابن الانسان أن يسند رأسه) [9] وذلك لكي يصف يسوع نفسه بمصطلح (ابن الانسان). كما يصفه أيضاً ب(المجنون) حين يقول: (ولكن لم أهمس لفظة "مجنون" في أذن روحي حتى حدّق إليّ شاخصاً ورفع صوته عن ذي قبل وقال: نعم أنا مجنون، ومن كان مثلي يرى نفسه غريباً بلا مأوى وجائعاً بلا طعام[10]

ويمكن لنا أن نطابق بين وصف يسوع ب(المجنون) قي هذا النص، وبين ما سنراه من وصف لشخصية (المجنون) في الكتاب الذي حمل اسمه وأصدره جبران بالانكليزية عام١٩١٨. فالمجنون ،

---

[9] المرجع السابق-صفحة١٣٠ و انجيل متى-الاصحاح الثامن-الآية ٢٠

[10] المرجع السابق-صفحة١٢٩

مثل يسوع، يريد أن يمشي على البحر وحده [11]. ومثل يسوع أيضاً سيصلبه قومه ويجتمعون حول صليبه ساخرين من تضحيته وألمه وناكرين تعاليمه وتبشيره بأيام أبهى من أيامهم وليال أسعد من لياليهم [12] وهذا مثال نرى من خلاله كيف أن شخصية (يسوع) كانت حاضرة دائماً في بنية جميع الشخصيات التي تجلى فيها (نبي جبران) منذ يوحنا المجنون وخليل الكافر، مروراً بآمنة العلوية والمجنون والسابق، و وصولاً إلى المصطفى (نبي أورفليس). ولا يعني ذلك أن الأمر مقتصر على استعارة بعض ملامح أو عناصر شخصية يسوع للاستفادة منها في رسم الشخصيات الأخرى، بل يمكن لنا أن نلاحظ نوعاً من التبادل بين هذه الشخصيات وبين شخصية يسوع، كما نرى في المثال السابق نفسه، وكما يتضح عند المقارنة بين يسوع ابن الانسان، وبين المصطفى في كتاب (النبي).

وفي الحقيقة فإن الصورة التي يرسمها جبران للمسيح في كتاب (يسوع ابن الانسان) تتطابق تطابقاً تاماً مع صورة (نبي أورفليس)، بينما تختلف كثيراً عن صورته في معتقدات المسيحيين. وأعتقد أن وعي جبران لهذه المسألة هو الذي أملى عليه اللجوء إلى هذا الأسلوب الفني في بناء الكتاب، والذي يتجلى في سرد سيرة يسوع اعتماداً على ما يقوله عنه سبعة وسبعون شخصاً ورد ذكر

---

[11] جبران-المجنون-مؤسسة علاء الدين-دمشق٢٠٠٣-صفحة٥١

[12] المرجع السابق-نص (المصلوب)-صفحة ٩١

معظمهم في الأناجيل، مما يوحي بالتجرّد والموضوعية، ويبعث في نفس القارئ مزيداً من الثقة والمصداقية والقبول بالصورة الجديدة على انها الصورة التاريخية الحقيقية، وهذا الأسلوب يشبه ما اعتاد الروائيون توظيفه فيما يسمى (الايهام الفني).

ولما كان لا يوجد من هو أكثر مصداقية من الجدّة، في شهادتها عن ولادة حفيدها، فإن جبران يترك الحديث عن ميلاد يسوع لجدته (حنة أم مريم) التي تتجاهل الاشارة إلى أية معجزة في هذا الميلاد، وتكتفي بالقول ببساطة مطلقة ان ابنتها ولدت صبياً في هذه الليلة. ولا يفوت جبران أن يضع على لسان الجدّة تعليلاً مقبولاً لتزامن ولادة يسوع مع زيارة رجال من المشرق، إذ تقول: (فقد كانوا أعجاماً جاؤوا إلى اسدريلون مع قوافل الميديين في طريقهم الى مصر. وإذا لم يجدوا مكاناً في الفندق طلبوا ملجأ في بيتنا). فالمسألة لا ترتبط بأية ظاهرة خارقة، كما هو الحال في الرواية الرسمية، ولكن المصادفة وحدها هي التي جعلت هؤلاء الرجال يطلبون ملجأ في بيت أهل يسوع لأنهم لم يتمكنوا من الظفر بمكان في الفندق.

ولا يكتفي جبران بشهادة أم مريم لنفي معجزة ولادة يسوع، بل يؤكد صراحة على أنه ولد ولادة طبيعية لأبوين من البشر، مثله مثل جميع الأطفال، فيقول على لسان يوحنا بن زبدي : (قد ولد يسوع الناصري ونشأ مثلنا، وكان أبوه وأمه كوالدينا، وكان هو إنساناً مثلنا). فيسوع إذن ليس الهاً، وليس ابناً للإله، بل هو إنسان ، ولد من

أم وأب عاديين، ولذلك فإن بإمكان أي منا أن بصير مسيحاً ، وهو ما يقوله يوحنا بن زبدي صراحة أيضاً : (إلا أننا نحن أنفسنا نصير مسحاء عندما نجتمع في الهيكل غير المنظور، في ألف سنة، حينئذ يخرج أحدنا متجسداً). ومادام الأمر كذلك، فلماذا لم نصبح جميعنا مسحاء؟ يجيب جبران على لسان يوحنا بن زبدي: (لأننا لم نقدر أن نسمع أنشودة الريح التي لا جسد لها، ولم نر ذاتنا العظمى سائرة في الضباب) . وهذا يعني أنه في وسع أي امرئ أن يصير مسيحاً إذا ما استطاع أن يحرّر حواسه من قيود الواقع (كما رفع "المجنون" البراقع عن عينيه فقبّلت الشمس وجهه العاري لأول مرة) [١٣] وإذا ما سعى إلى تحقيق ذاته العظمى (كما فعل "المصطفى" في كتاب "النبي") [١٤]

وما الريح التي لا جسد لها سوى نفحات الروح الكلية الأزلية التي هي أصل الوجود، والتي هي مبثوثة في جميع الأحياء والموجودات، أما الهيكل غير المنظور فهو الذات الخالدة الشاملة التي لا يحقق الانسان ذاته العظمى الا بالعودة اليها والالتحام فيها حسب المفهوم الجبراني . وهذه الذات الخالدة هي التي يسميها جبران (البحر العظيم) الذي تعود إليه جميع الجداول الصغيرة (الذوات الانسانية) بعد أن تكمل دوراتها المتعاقبة فتكتسب الخبرات وتحمل المعارف

---

[١٣] جبران-المجنون-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٣-صفحة٤٧

[١٤] جبران-النبي-مؤسسة علاء الدين-دمش٢٠٠٣-راحع فصل(المصطفى) ص٧٩ وفصل (الوداع) ص١٥٥

وتكشف الأسرار والخفايا وتصفو وتشفّ وتصبح قادرة على النفاذ إلى جوهر الوجود. هذا البحر هو الذي خاطبه المصطفى في كتاب (النبي) بقوله: (أنت أيها البحر الشاسع، أيتها الأم الغافية، الحالمة، أنت وحدك السلام والحرية للنهر والجدول. سيدور هذا الجدول دورة بعد، سيهمس همسة أخيرة في أذن هذه الغابة، ومن بعدها آتيك قطرة لا تحدّ إلى محيط لا يحدّ) [(١٥)]

وكما رأينا (المطرة)،وهي أول من آمن بالمصطفى في كتاب (النبي)، قد بقيت على الشاطئ تردد كلمات النبي الأخيرة بعد ان التحم بالبحر، نجد يسوع يطلب من رفيقيه (سمعان وأندراوس) أن يتبعاه (الى شواطئ البحر الأعظم).

وهكذا يتضح لنا أن أي انسان بمقدوره أن يصبح (مسيحاً) بالطريقة نفسها التي يمكن له أن يصير بها (نبيّاً) كنبي أورفليس، وبالطريقة نفسها التي يمكن له أن يبلغ بها مرحلة (الانسان الكامل) . ففي نص بعنوان (الكمال) من كتاب (البدائع والطرائف الصادر عام١٩٢٣ يقول جبران : (تسألني يا أخي متى يصير الانسان كاملاً، فاسمع جوابي: يسير الانسان نحو الكمال عندما يشعر بأنه هو الفضاء ولا حدّ له، وهو هو البحر بدون شواطئ، وأنه النار المتأججة دائماً، والنور الساطع أبداً..) [(١٦)]

[(١٥)] المرجع السابق-صفحة٨١

[(١٦)] جبران-البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة٩٦

ولا ريب في أن ذلك كله يؤكد لنا أن (يسوع ابن الانسان) هو نفسه (نبي) أورفليس، وهو نفسه (الانسان الكامل) في الرؤيا الجبرانية.

وضمن هذه الرؤيا لم تعد العجائب التي أتى بها يسوع في الرواية التقليدية، مظاهر خارقة لنواميس الطبيعة والكون، إذ (لا عجائب في الوجود وراء الفصول) كما يقول (ملاخي الفلكي البابلي) ، لذلك راح جبران ،على لسان هذا الفلكي، يعلل عجائب يسوع تعليلاً علمياً منطقياً يستند إلى منجزات الطب الحديث من جهة، والى منظومته الفكرية القائمة على مبدأي (وحدة الوجود) والذات العظمى) من جهة ثانية. فالعمى الذي شفاه يسوع لم يكن بسبب عضوي، بل هو عمى نفسي أو (عمى هيستيريائي) بالمصطلح الطبي الحديث، لذلك أمكن شفاؤه بالعلاج النفسي القائم على الايحاء. ومثل ذلك كانت حالة الشلل عند المقعد الذي جعله يسوع يمشي، ذلك أنه لم يكن يحتاج سوى إلى ايقاظ القوة المحركة لأطرافه. أما الشياطين الذين قيل أن يسوع كان يخرجهم من المجانين، فهم ليسوا شياطين بمعنى الكلمة، لأنه لاوجود في الكون لمثل هذه الكائنات الخرافية، بل هم مجرد رموز لعناصر القلق التي تعتري النفس البشرية، ولا يتطلب التخلص منهم سوى بثّ الشعور بالسلامة والطمأنينية في تلك النفوس المعذبة.

وإذا كانت المعارف الطبية الحديثة تكفي لتفسير الظواهر السابقة، فإن جبران يستخدم فكرته عن وحدة الوجود ليفسر

الأعجوبة الأكثر أهمية التي تروى عن يسوع، وهي قدرته على احياء الموتى، فيشير أولاً إلى أننا لا نملك فهماً حقيقياً بعد عن حقيقة الموت، ولا عن حقيقة الحياة، ولكننا نرى في الطبيعة كيف أن (البلوطة) الهادئة التي لا قيمة لها ولا شأن، تنهض في الربيع لتصير سنديانة جبّارة، فاذا كانت هذه الأعجوبة تصنع ألف ألف مرة في الطبيعة، فماذا يمنع حصولها في قلب الانسان، طالما أن قلب الانسان ينتمي الى الذات نفسها التي تتألف منها جميع الموجودات؟ واذا كان الله قد منح الأرض أن تحتضن البذور وهي ميتة في الظاهر، فلماذا لا يمنح قلب الانسان أن ينفخ نسمة الحياة في قلب آخر، وإن كان هذا القلب ميتاً بحسب الظاهر؟ لاسيّما أن الله والأرض والبذور وقلب الانسان ما هي إلا تجليات متعددة للذات الكلية الشاملة في مبدأ وحدة الوجود.

ومع كل ذلك، فإن جبران يؤكد على لسان الفلكي البابلي، أن كل تلك العجائب لا تستحق سوى القليل من الانتباه تجاه الأعجوبة الكبرى، التي تتجلى في شخص يسوع نفسه، الذي استطاع أن يزيل الصدأ عن النفوس، فأنارها وأصلح اعوجاجها وأزال القلق عنها ومنحها القدرة على المحبة الشاملة، وحمل إليها التعزية والأحلام اللذيذة، وعلّمها أن تنشد الشباب أبداً وأن تفتش في المعرفة عن الرؤيا.

وهكذا نفى جبران عن (يسوع) كل ما يمكن أن يصوّره كإله أو شخصية خارقة لنواميس الطبيعة، وأعاده إلى طبيعته البشرية، لذلك يقول منسي المحامي الأورشليمي : (لقد أعجبت به كرجل وليس كزعيم)، ولكنه بالتأكيد ليس أي رجل، بل هو الرجل الحي. الرجل الأول الذي فتح عينيه ونظر الى الشمس بأجفان غير مرتعشة. الرجل القوي الجبار المتمرد الذي جاء ليقود الشعب إلى الثورة ، وليعلّم الناس كيف يحطّمون قيود عبوديتهم ليتحرروا من سجون أمسهم، وليبشرهم بالحرية المطلقة والعدالة الكاملة، وليكون عاصفة في سمائهم وأنشودة في قلوبهم ، وليعلن لهم الله كائناً يعشق المسرة والفرح.

وإذا كان (مانوس) قد سمّاه (الفيلسوف يسوع) وقال إنه (لم يكن مختلفاً عن سقراط)، فإن (رومانوس) الشاعر اليوناني يؤكد أنه كان شاعراً . بل هو الشاعر الحقيقي، لأن رومانوس يقول: (قد حسبت نفسي شاعراً فيما مضى، ولكنني عندما وقفت أمامه في بيت عنيا عرفت للحال ما مقام الضارب على آلة ذات وتر واحد أمام الذي يأمر جميع الآلات وجميع الأوتار فتطيعه، فقد اجتمع في صوته ضحك الرعود، ودموع الأمطار ورقص الرياح والأشجار. ومنذ عرفت هذا صارت قيثارتي ذات وتر واحد، ولم يعد لصوتي أن يحوك لا تذكارات الأمس ولا آمال الغد، ولذلك رميت بقيثارتي جانباً وعوّلت على الاعتصام بالصمت. ولكنني عند كل شفق أصغي بجماع نفسي، لأسمع الشاعر الذي هو أمير الشعراء).

وعندما يخلع جبران أقنعة الشخصيات التي يتحدث باسمها ، لينطق بلسانه هو ، يصر على مخاطبته ب (أيها الشاعر) ، ويعلنه سيّد الشعراء، وسيّد ما قيل وما أنشد من الكلام. و مثل أي شاعر حقيقي، فإن سحره يكمن في صوته وإشاراته وليس في مادة خطابه. وهو كثير الإبهام، بعيد الخيال، وافر التلبس كما يصفه منسي المحامي . وكما يقول اسكافي أورشليم الذي يؤكد أنه لم يصغ اليه ليسمع أقواله ، بل بالأحرى ليسمع رنّة صوته لأن صوته كان يطربه ، وبالرغم من أن كل ما قاله كان غامضاً مبهماً (مثل أي شعر حقيقي) ولكن موسيقى صوته كانت صريحة. لأن الانسان (كما تقول زوجة بيلاطس) لا يحتاج إلى لغة لكي يرى عموداً من النور أو جبلاً من البلّور ، فالقلب يعرف ما لا ينطق به اللسان و ما لا تسمعه الآذان. فكلمات يسوع لم تكن لآذاننا بل بالأحرى للعناصر التي صنع الله منها هذه الأرض ، وعندما تكلّم يسوع صمت العالم كله ليصغي.

وفي الحقيقة ، فإن كلام يسوع الذي أصغى العالم كله له ، يكاد لا يختلف عن الكلام الذي قاله (المصطفى) لأهل مدينته (أورفليس) في كتاب (النبي). فكما كانت (المحبة) أساس رؤيا (النبي) ، فإن المحبة هي (السرّ المقدّس) في تعاليم يسوع ابن الانسان.ولذلك لم يكن يسوع عدوّا لانسان ولا لجنس من الناس ، وبالرغم من أنه قد ولد في سوريا ، فهو من جميع القبائل، ولذا فانه لا يختص بواحدة منها ، وإنما ينتمي الى البشرية جمعاء.فالانسان في

سوريا كأخيه الانسان في كل مكان، فلا يوجد غرباء في ملكوته.

ومثلما قال المصطفى في كتاب (النبي) : إن العطاء حاجة من حاجات الثمرة لا تعيش بدونها [١٧] فان يسوع يعلمنا من خلال إعطائه التفاحتين لرفيقه يوحنا في بطمس، أن المعطي يشبع ويكتفي بفعل العطاء نفسه.

وكما ينكر (النبي) وجود الشر في النفس البشرية، ويقول إن الخير والشر هما من طبيعة واحدة، فالشر هو بعينه الخير المتألم آلاماً مبرحة من تعطشه ومجاعته [١٨] فان يسوع ابن الانسان لا يعترف بوجود الشر أيضاً، فاللص هو رجل محتاج، والكذاب هو رجل خائف، والصياد الذي يصطاده حارس ليلكم قد اصطاده أيضاً حارس ظلمة نفسه. وكما اعتبر نبي أورفليس أن المجتمع بأسره مسؤول عن الجرائم التي تقع فيه، لأن فاعل السوء لا يستطيع أن يقترف إثماً دون إرادة بقية أفراد المجتمع ومعرفتهم ف(القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل، وليس المسروق بلا لوم في سرقته، ولا يستطيع البار أن يتبرأ من أعمال الشرير، ولا الطاهر النقي اليدين بريء الذمة من قذارة المدنسين) [١٩] فان يسوع ابن الانسان يؤكد أنه ما من جريمة يرتكبها رجل فرد أو امرأة وحدها، فإن جميع الجرائم يشترك

---

[١٧] جبران-النبي-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٣-صفحة١٣٤

[١٨] المرجع السابق-صفحة ١٢٠

[١٩] المرجع السابق-صفحة ١٥٠

الجميع في ارتكابها، لأن البريء والمجرم لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وكعظمي الساعد لن ينفصلا. وإن أعمال جميع الناس هي أعمالنا بعينها المخفية والظاهرة.

أما نظرية (يسوع) في المعرفة، فهي نظرية (النبي) نفسها، فالمعرفة هي تلك المخفية في أعماقنا، والوصول إليها يتم عن طريق القلب والحواس بعد تحريرها من حجب الواقع، وغاية المعرفة هي بلوغ (الرؤيا) التي تمكّن الانسان من تحقيق ذاته العظمى، ووسيلة ذلك هي الحنين أو التشوّق، فالحنين هو ينبوع الوجد المقدس والطريق المؤدية إلى الذات الكلية الخالدة.

ويمكن لنا أن نستمر في إجراء هذه المقارنات بين تعاليم (يسوع ابن الانسان) وبين تعاليم (المصطفى) لنستنتج أن الرؤيا التي وضعها جبران على لسان (يسوع) هي نفسها رؤيا (المصطفى) في كتاب (النبي)، معبراً عنها بالصور والألفاظ نفسها في أغلب الأحيان. وهي الرؤيا التي تقوم أساساً على المفهومين الرئيسين الذين يشكلان قطبي فكر جبران خليل جبران، وهما (وحدة الوجود) و(الذات العظمى). فالوجود كله يعود إلى أصل واحد، ذلك أن روح الانسان مولودة من روح الله ، وما الجسد سوى هيكل للنفس، وما الكأس سوى الخمرة نفسها، وما الشكّ سوى ألم أنسته وحدته أنه والايمان توأمان، وما الشر سوى الخير في حالة خاصة من حالاته، وما البذرة المختفية في قلب التفاحة سوى شجرة غير منظورة. وليس

من غاية للإنسان في هذا العالم، سوى أن ينشد (ذاته العظمى) مثلما ينشد الجدول البحر أبداً، مقتدياً بيسوع الذي وصلت سفينته إلى الميناء، كما وصلت سفينة (المصطفى) في كتاب (النبي). (وهاهي الأم الكبرى تضمّ ابنها ثانية إلى صدرها) [٢٠] وسيقول يسوع للناس أيضاً ما قاله المصطفى لأهل مدينته: لا تضطرب قلوبكم، فأنا لا أترككم إلا لأعدّ لكم مكاناً في بيت أبي (الذات الكلية الخالدة) ولكن إذا احتجتم إليّ فإني أرجع إليكم، وحيث دعوتموني أسمعكم، وحيثما طلبتني أرواحكم فهناك أكون معكم.

ويبدو لي أن هذه المقارنة بين شخصية وتعاليم (يسوع ابن الانسان) كما يراها جبران، وبين شخصية وتعاليم (المصطفى) في كتاب (النبي)، تتيح لنا الإجابة على السؤال الذي ما فتئ يحيّر النقاد الذين درسوا أعمال جبران، دون أن يجدوا له جواباً مقنعاً. وهو لماذا تعمّد جبران أن يختار لنبيّه اسماً من أسماء رسول الإسلام (المصطفى)؟.

في اعتقادي أن جبران أراد من وراء إظهار التطابق التام بين الشخصيتين وشريعتيهما أن يؤكد مذهبه في وحدة الأديان، فالأديان جميعها في أصلها دين واحد. وقد سبق لجبران أن عبّر عن مذهبه هذا في مواضع عديدة في كتبه السابقة، فقد تساءل مبكّراً في كتابه (الأرواح المتمردة ١٩٠٨) على لسان بطله خليل الكافر: (إلام يتباعد

---

[٢٠] جبران-النبي- صفحة١٦٦

الصليب عن الهلال أمام عين الله) [٢١] كما قال في كتابه (دمعة وابتسامة١٩١٤) : أنت أخي وأنا أحبك. أحبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك، فأنت وأنا ابنا دين واحد هو الروح [٢٢] وهو معنى قول (آمنة العلوية) في نص (إرم ذات العماد): (قل لا إله إلا الله ولا شيء إلا الله وكن مسيحيّاً)[٢٣]

ولا شكّ أن فكرة (وحدة الأديان) هذه، قد قال بها كثير من الفلاسفة والمتصوّفة الذين تأثر بهم جبران، كما تأثّر بعدد من المفكرين والشعراء الذين سبقوه في نفيهم لألوهيّة المسيح، ولاسيّما الشاعر الانكليزي (وليم بليك) في كتابه (الإنجيل الأبدي)، والمفكر الفرنسي (أرنست رينان) الذي علّل معجزات المسيح في كتابه عن (حياة يسوع) بالمهارات التي تعلّمها من كهنة الهند وبلاد مابين النهرين.

إلا أنه لا بدّ من الإشارة إلى أن تلك الأفكار والتصوّرات لم تكن طارئة على جبران، بل هي من صميم رؤيته الفكرية التي ما برح يطرحها ويعمّقها في كتاباته جميعها منذ كتابه الأول، مما يمنحها أصالة جبرانية حقيقيّة، لاسيّما في صياغتها الفنيّة الشعريّة، التي تمثّل الخصوصيّة الإبداعية الجبرانية.

---

[٢١] جبران-الأرواح المتمردة-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة١٤١

[٢٢] جبران-دمعة وابتسامة-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة٢٠١

[٢٣] جبران-البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة١٥١

فجبران شاعر في المقام الأول، وكتاب (يسوع ابن الانسان) حافل بالنصوص ذات الطبيعة الشعرية الخالصة. مثل هذا النص الذي تخاطب فيه (فومية رئيسة كاهنات صيدا) رفيقاتها الكاهنات:

(إحملن أعوادكنّ لأغني

اضربن على الأوتار الفضيّة والذهبية، فاني أريد أن أترنّم بذكرى الرجل الشجاع الذي قتل وحش الوادي ثم جلس ينظر إلى ما قتل بعين الشفقة.

احملن أعوادكن لنغني معاً للسنديانة الرفيعة على الأعالي.

لنترنّم بذكرى الرجل الذي يلمس قلبه الماء وتحيط يده بالأوقيانوس.

الذي قبّل شفتيّ الموت الشاحبتين، لكنه يرتجف الآن أمام فم الحياة.)

ومثل نص (يوناثان بين زنابق المياه) ، الذي يفيض بالرقة والعذوبة مثل أية أغنية حب صافية:

(أي زهر غير عرائس النيل يعرف المياه والشمس؟

وأي قلب غير قلبها سيعرف الأرض والسماء؟

تأمّل يا حبيبي هذه الزهرة العائمة بين العلوّ والعمق كما نسبح أنت وأنا بين المحبة التي كانت منذ الأزل وستظل إلى منتهى الدهور.

حرّك مجذافك يا حبيبي لأضرب على أوتار قيثارتي. لنتبع الصفصاف ولا نهمل زنابق المياه.

جميل أن نعرف شباب الحياة أيها الحبيب

جميل أن نعرف أفراحه المترنمة

أود لو ان مجاذيفك تظل أبداً في يدك، وأنا تظل لي قيثارتي ذات الأوتار،

حيث تضحك عرائس النيل في الشمس ويغتسل الصفصاف في المياه، ويرافق صوته حركات أوتاري.)

ومثل هذه المرثاة التي تنشدها امرأة من جارات مريم:

(إلى أين يا ربيعي، إلى أين؟

وإلى أي فضاء آخر يتصاعد عبيرك؟

وفي أي حقل آخر ستمشي؟

وإلى أية سماء سترفع رأسك لتتكلّم بما في قلبك؟

ستقفر هذه الأودية، ولن يكون لنا غير الحقول الجرداء القفراء.

إن جميع الأشياء الخضراء ستحترق في الشمس، ولن تنتج بساتيننا سوى التفّاح الحامض، وكرومنا غير العنب المرّ.

سنعطش لخمرتك، وستحنّ مشامّنا لعطرك.

إلى أين يا زهرة ربيعنا الأول، إلى أين؟)

ومثل هذه المرثاة التي تقطر ألماً وتفجعاً، والتي تنشدها امرأة من جبيل:

إبكين معي يا بنات عشتروت. ويا كل محبّي تموز

لأن حبيبي قد أفلت مني

ذلك الذي تكلّم كما تتكلّم الأنهار.

ذلك الذي كان صوته و زمّارته توأمين،

ذلك الذي كان فمه ألماً ملتهباً فتحّول إلى عذوبة لذيذة،

ذلك الذي كانت المرارة تتحوّل على شفتيه إلى شهد العسل.

إبكين معي يا بنات عشتروت، ويا كل محبي تموز.

إبكين معي حول نعشه كما تبكي النجوم،

وكما تتساقط أوراق القمر على جسده الجريح.

بلّلن بدموعكنّ أغطية فراشي الحريرية. حيث استراح حبيبي مرة في حلمي ثم ابتعد عني في يقظتي

استحلفكنّ يا بنات عشتروت. ويا كل محبي تموز.

اسندن صدوركن وابكين وعزيني.

لأن يسوع الناصري قد مات.

وفي الحقيقة، يكفي أن نتأمل اللغة الفنيّة العالية، التي كتب بها جبران نصوص كتابه، ونسبح في الفضاء التصويري المبدع الذي يلفّها، ونشرع أبواب قلوبنا أمام النفحات الروحيّة التي تفيض منها، لنتأكد أن الإنجاز الجبراني هو إنجاز شعري إبداعي قبل أي شيء آخر.

د. نزار بريك هنيدي

دمشق١٥/٦/٢٠٠٣

جبران خليل جبران

الأعمال الكاملة (١٤)

يسوع ابن الإنسان

JESUS SON OF MAN

BY KAHLIL GIBRAN

(1928)

تعريب

الأرشمندريت أنطونيوس بشير

يعقوب بن زبدي
ممالك العالم

في يوم من أيام الربيع وقف يسوع في ساحة المدينة في أورشليم وشرع يخاطب الجموع عن ملكوت السماء.

فاتهم الكتبة والفرنسيين بإقامتهم فخاخاً وحفرهم حفراً في طريق الراغبين في الملكوت، موبخاً وزاجراً.

وكان بين الجموع رجال يدافعون عن الفريسيين والكتبة، ففكروا في أن يقبضوا على يسوع وعلينا جميعاً.

ولكنه تجنبهم وأعرض عنهم سائراً إلى البوابة الشمالية للمدينة.

وهناك نظر إلينا وقال: لم تأتِ ساعتي بعد، إن هنالك كثيراً سأقوله لكم وكثيراً سأفعله بينكم قبل أن أسلم نفسي للعالم.

ثم قال وفي صوته رنّة الفرح والضحك: هلّم بنا إلى الشمال لتلاقي الربيع. تعالوا معي إلى التلال، لأن الشتاء قد ولى وثلوج لبنان تنحدر إلى الأودية لتترنّم مع الجداول.

قد قضت الحقول والكروم على النوم، واستيقظت لتحيي الشمس بتينها الأخضر وعنبها الرقيق.

كان يمشي أمامنا ونحن نتبعه كل ذلك اليوم والذي تلاه.

وفي مساء اليوم الثالث وصلنا إلى قمة جبل حرمون، وهنالك وقف ينظر إلى مدن السهول.

فأشرق وجهه كأنّه الذهب المحترق، وبسط ذراعيه وقال لنا: انظروا إلى الأرض في ثوبها السندسي وتأملوا كيف طرزت السواقي أهدابه بالفضّة اللامعة.

حقّاً إن الأرض جميلة، وكلّ ما عليها جميل.

ولكن وراء كل ما تنظرون ملكوت سأحكمه وأسود فيه، فإذا شئتم ورغبتم من قلوبكم فأنتم أيضاً ستذهبون إليه وتحكمون معي.

إن وجهي ووجوهكم لن تتقنّع فيه، ولن تحمل يدنا سيفاً ولا صولجاناً، وسيحبنا رعايانا وسيعيشون بسلام من غير أن يعرفوا خوفاً منّا.

هكذا تكلّم يسوع، أما أنا فإنّني كنت أعمى عن جميع ممالك الأرض وكل المدن ذات الأسوار والقلاع، ولم تكن في قلبي سوى رغبة واحدة: أن أتبع المعلم إلى ملكوته.

وفي تلك اللحظة تقدم يهوذا الأسخريوطي ودنا من يسوع وقال له: تأمل، إن ممالك العالم واسعة، ومدن داود وسليمان ستغلب

الرومانيين. فإذا شئت أن تكون ملك اليهود فإنّنا نقف سيوفنا ورماحنا لتأييدك وفوزك على الغرباء.

ولما سمع يسوع هذا التفت إلى يهوذا وأمائر الغضب تملأ محياه، وخاطبه بصوت راعب كرعد السماء قائلاً: تخلف عني يا شيطان! وهل يخطر لك أنّني جئت في مواكب السنين لأحكم ثلة من النمل يوماً واحداً؟

إن عرشي يفوق بصيرتك. وهل يمكن أن الذي يحوط الأرض بجناحيه ينشد ملجأ في عش مهجور منسي؟

أم هل يتشرف الحي ويرتفع بواسطة لابسي الأكفان؟

إنّ مملكتي ليست من هذه الأرض، ومجلسي لم يبن على جماجم أسلافكم.

فإذا كنتم تنشدون مملكة غير مملكة الروح فالأجدر بكم أن تتركوني ههنا، وتنحدروا إلى مغاور أمواتكم حيث يعقد ذوو الرؤوس المتوجة منذ القديم مجالسهم في قبورهم ليعطوا مجداً لعظام جدودكم وآبائكم.

كيف تجرؤ أن تجربني بتاج من نفاية المادة في حين أن جبهتي تنشد إمّا الثريا وإما أشواككم؟

إلا أنّني لولا حلم حلمهُ جنس منسي لما كنت آذن لشمسكم أن تشرق على صبري ولا لقمركم أن يبسط ظلي في طريقكم.

ولولا رغبة نقية اختلجت في قلب أم طاهرة لكنت جردت نفسي من أقمطتي وهربت راجعاً إلى الفضاء.

ولولا الكآبة التي في أعماقكم جميعاً لما كنت أقمتُ هنا للبكاء والنواح.

فمن أنت وما شأنك يا يهوذا الأسخروطي؟ ولماذا تجربني؟

هل وزنتني في الميزان فوجدتني جديراً بأن أقود جيشاً من الأقزام، وأدير مراكب من لا شكل له ضد عدو لا يجتمع إلا في بغضكم ولا يهجم إلا في مخاوفكم وأوهامكم؟

كثير هو الدود المجتمع حول قدمي، ولكنني لن أصليه ضرباً. قد مللت الهزل والمجون وسئمت نفسي الشفقة على الدبابات التي تحسبني جباناً لأنّني لا أتخطر بين أسوارها وقلاعها الحصينة.

إن من دواعي الشفقة أن أكون محتاجاً إلى الرحمة حتى النهاية. وكم أودّ لو كنت قادراً أن أدير خطواتي إلى عالم أكبر من هذا العالم حيث يعيش رجال أعظم من رجاله، ولكن كيف أفعل ذلك؟

إن كاهنكم وإمبراطوركم يريدان دمي، وسينالان ضالتهما قبل سفري إلى ذلك العالم. إنّني لن أغيّر سير الشريعة ولن أقيّد الجهالة.

دع الجهل يستثمر ذاته حتى يملّ ذريته.

دع العميان يقودون العميان إلى الحفرة.

ودع الموتى يدفنون الموتى حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة.

إن مملكتي ليست من هذه الأرض. مملكتي ستكون حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة منكم بمحبة، وباحترام لجمال الحياة، وبغبطة وبهجة لتذكاري.

ثم التفت إلى يهوذا فجأة وقال: تخلّف عني أيها الرجل. إن ممالككم لن تكون في مملكتي.



وكان الشفق فنظر إلينا وقال: فلننزل من هنا، لأن الليل يدنو منّا. فلنسر في النور ما دام لنا النور.

ثم انحدر من التلال ونحن نتبعه. وكان يهوذا يتبعنا من بعيد.

وعندما وصلنا إلى السهول خيم الظلام.

فقال له توما بن ثيوفانس: يا معلم قد دنا الظلام ونحن لا نرى الطريق، فإذا شئت سر بنا إلى أنوار تلك القرية لعلنا نجد طعاماً ومأوى.

أما يسوع فأجاب توما قائلاً: قد قدتكم إلى الأعالي عندما كنتم جياعاً. وها قد أنزلتكم إلى السهول وقد تضاعف جوعكم. ولكنني لا أقدر أن أقيم معكم في هذه الليلة، لأنّني أودّ أن أكون وحدي.

فتقدم سمعان بطرس وقال: يا معلم، لا تتركنا نمشي وحدنا في الظلام، بل ائذن لنا أن نقيم معك في هذه الطريق الضيقة، فالليل

وأشباحه لن تطيل إقامتها معنا، لأن الصباح سيجدنا قريباً إذا كنت تتعطف وتظلّ معنا.

فأجاب يسوع وقال: في هذه الليلة ستكون للثعالب أوجارها ولطيور السماء أعشاشها، ولكن ابن الإنسان ليس له على الأرض موضع يسند إليه رأسه. وأنا بالحقيقة أريد الآن أن أكون وحدي، فإذا تقتم إليّ فإنّكم ستجدونني ثانية على البحيرة حيث وجدتكم.



فانصرفنا عنه وقلوبنا تتمزّق ألماً لأنّنا لم نشأ أن نفارقه بطوعنا.

وكنّا بين الهنيهة والأخرى نقف ونتلفت إلى الوراء لنراه في عظمة وحدته سائراً نحو الغرب.

أما الرجل الوحيد فينا الذي لم يلتفت إلى الوراء ليرى المعلم في كمال وحدته فهو يهوذا الأسخريوطي.

ومن تلك الساعة ساء خلق يهوذا وكثر اضطرابه وأظلمت عيناه بسحب كثيفة من الغدر والشرّ.

حنة أم مريم
ميلاد يسوع

وُلد يسوع حفيدي هنا في الناصرة في شهر كانون الأول. وفي الليلة التي ولد فيها يسوع زارنا رجال من المشرق. فقد كانوا أعجاماً جاؤوا إلى اسدريلون مع قوافل الميديين في طريقهم إلى مصر. وإذ لم يجدوا مكاناً في الفندق طلبوا ملجأ في بيتنا.

وقد رحبت بهم وقلت لهم: إن ابنتي ولدت صبيّاً في هذه الليلة. وأنتم ولا شكّ تغضون الطرف عن قصوري إذا لم أقم بواجب الضيافة كما يليق بكم.

فشكروني على قبولهم في منزلي. وبعد العشاء قالوا لي: نود أن نرى الطفل الجديد.

وكان ابن مريم جميل الصورة، وهي أيضاً كانت جميلة.

وعندما رأى الأعجام مريم وطفلها أخرجوا ذهباً وفضة من أكياسهم، ومرّاً ولباناً، وطرحوها كلها عند قدمي الطفل.

ثم سجدوا وصلوا بلغة غريبة لم نفهمها.

وعندما ذهبت بهم إلى غرفة النوم التي أعددتها لهم دخلوا بملء الاحترام مما رأوا وشاهدوا.

وعند الصباح تركونا وساروا في طريقهم إلى مصر.

ولكن قبل انصرافهم قالوا لي: إن هذا الطفل وإن كان ابن يوم واحد إنّنا قد رأينا نور إلهنا في عينيه وابتسامة إلهنا على شفتيه.

فنرجو منكم أن تحرسوه بعنايتكم ليحرسكم بعنايته.

وإذا قالوا هذا ركبوا جمالهم ولم نرهم بعد ذلك.

أما مريم فلم يكن فرحها ببكرها ليضاهي شدة دهشتها وذهولها أمامه.

فكانت تحدّق إليه طويلاً ثم تدير وجهها إلى النافذة وتتأمل السماء البعيدة منذهلة كأنها ترى رؤى سماوية.

وكان قلبها وقلبي أودية بعيدة العمق.

وكان الصبي ينمو بالجسد والروح، وكان يختلف كل الاختلاف عن جميع أترابه، فكان محبّاً للوحدة، يصعب الحكم عليه، ولم أقدر أن أضع يدي عليه قطّ.

بيد أنه كان محبوباً من جميع أهل الناصرة، وفي أعماق قلبي عرفت السبب في ذلك.

وكثيراً ما كان يأخذ طعامنا ويعطيه لعابري السبيل. وكلما أعطيته شيئاً من الحلوى كان يعطيه للأولاد رفقائه قبل أن يذوقه بفمه.

وكـان يتسـلق أشـجار البسـتان ويقطـف أثمارهـا ليحملـها إلـى غيره ممن لا أثمار في بساتينهم.

وكثيراً ما رأيتـه بعينـي وهـو يتسـابق مـع الأولاد، وإذ يـرى أنـه أسرع خطى منهم، يتباطأ في سيره حتـى يسـبقوه إلـى المحجـة قبـل أن يصل هو إليها.

وكـان فـي بعـض الليـالي عندمـا أقـوده إلـى فراشـه يقـول لـي: أخبري أمّي وغيرها أن جسدي فقط ينام. ولكن فكري سيظل رفيقاً لهم حتى يأتي فكرهم إلى صباحي.

وغير هذا كثير من الآيات العجيبة التـي كـان يقولـها لـي فـي صبوته، ولكن ضعف ذاكرتي في شيخوختي يحول دون تذكرها.

واليوم يقولون لي إنني لن أراه فيما بعد. ولكن كيف أستطيع أن أصدق ما يقولون؟

إننـي مـا زلـت أسـمع ضحكـه، وصـوت وقـع قدميـه علـى أرض الدار لا يفارق أذني، وكلما قبلت وجنة ابنتي أشعر بعطر قبلاته يفوح في قلبي، وأحس بجسده الجميل يتموج بين ذراعيّ.

ولكن، أليس من الغرابة العجيبة أن ابنتي لا تتكلم عن ابنـها البكر أمامي أبداً؟

وكثيراً ما يخطر لـي أن شـوقي إليـه أعظـم مـن شـوقها، لأنـها تقف شاخصة أمام نور النهار كأنها تمثال مـن النحـاس الصـامت فـي

حين أن قلبي يذوب في صدري ويجري منسكباً كالجداول، ومن يدري، فلعلها تعلم ما لا أعلم. وليتها تحدّثني بما تعرف من الأسرار الغامضة عليّ.

عساف الملقب بخطيب صور
خطاب يسوع

ماذا أقول عن خطابه؟ لا شكّ أن قوة خفية في شخصيته كانت تسلح كلماته بسحر عجيب فتأخذ بمجامع قلوب سامعيه، لأنّه كان جميل الصورة بهيّ المحيّا.

وكان الرجال والنساء يحدقون إلى صورته الكاملة أكثر مما يصغون إلى مباحثه. ولكنه كثيراً ما كان يتكلم بقوة روح عجيبة، وتلك الروح كان لها السلطان الكامل على كل من سمعه.

قد سمعت في حداثتي خطباء روما وأثينا والاسكندرية، ولكن الناصري النذير كان يختلف كل الاختلاف عن جميعهم.

حصر أولئك همهم بترتيب الكلام بصورة تسحر الآذان، ولكنك إذ تسمع الناصري تشعر بأن قلبك يفارقك في الحال ويسير هائماً في أصقاع لم يزرها أحد بعد.

فهو يقص عليك قصة أو يخاطبك بمثل، ولكن سورية لم تسمع بمثل قصصه وأمثاله في كل تاريخها، لأنه كان يحوك أمثاله وقصصه من خيوط الفصول كما يحوك الزمان نسيجه من خيوط السنين والأجيال.

وإليك مثالاً من طريقته في بدء قصصه: خرج الزارع ليزرع زرعه.

أو كان لرجل غني كروم عديدة.

أو راعٍ عدّ خرافه عند المساء فوجد خروفاً ناقصاً.

ومثل هذه الكلمات تحمل سامعيه إلى ذواتهم الساذجة وإلى أيامهم القديمة الهادئة.

كلنا عند التحقيق زارع. وجميعنا نعشق الكرمة. وفي مراعي ذاكرتنا يوجد راع وقطيع وخروف ضال.

وهنالك أيضاً محراث ومعصرة وبيدر.

أجل، قد عرف الناصري ينبوع ذاتنا القديمة وخبر الخيوط التي حاك القدير نسيجنا منها.

إن خطباء اليونان والرومان خاطبوا الناس عن الحياة في نظر الفكر، ولكن الناصري تكلم عن حنين كائن في أعماق القلب.

أولئك رأوا الحياة بعيون قد تكون أنقى قليلاً من عينيك وعينيّ، أما هو فقد رأى الحياة بنور الله.

وكثيراً ما أفكر في أنه خاطب الجموع كما يخاطب الجبل السهل الوسيع. وكان في خطابه قوة لم تصل إليها أفكار أثينا وروما.

مريم المجدلية
اجتماعها بيسوع لأول مرة

رأيته لأول مرة في شهر حزيران. كان يمشي بين الزروع عندما مررت مع جواريّ، وكان وحيداً.

وكان انتظام وقع خطواته على الأرض مختلفاً عن جميع الرجال، وحركة جسمه لم أرَ مثلها قط في حياتي.

إن الرجال لا يمشون على الأرض، كما مشى هو وإلى هذه الساعة لا أدري إذا كان يسير بسرعة أو ببطء.

وكانت جواري يشرن إليه بأصابعهنّ ويتهامسن فيما بينهنّ والحياء يخيم فوقهنّ. أما أنا فوقفت لحظة ورفعت يدي لأحييه. ولكنه لم يلتفت، ولم ينظر إليّ. فأبغضته جداً، وشعرت بأن الدم يجمد في عروقي من شدة الغيظ، وفارقتني حرارة جسدي حتى صرت باردة كأنما أنا في عاصفة من الثلج هوجاء، وكنت أرتجف بكليتي.

وفي تلك الليلة رأيته في منامي، وقد أخبروني فيما بعد أنني كنت أصرخ صراخاً شديداً في نومي، ولم أعرف طعم الراحة في فراشي في تلك الليلة.

ثم رأيته ثانية في شهر آب، وكان ذلك من خلال نافذتي.

فكان جالساً في ظلّ سروة أمام بستاني، وكان هادئاً كأنّه تمثال منحوت من الحجارة، كالأنصاب التي رأيتها قبلاً في أنطاكية وغيرها من مدن الشمال.

في تلك الدقيقة جاءت خادمتي المصرية وقالت لي: إن ذلك الرجل هو هنا ثانية، وهو جالس هنالك أمام بستانك.

فحدقت إليه طويلاً، فارتعشت نفسي في أعماقي لأنّه كان جميلاً.

كان جسمه فريداً، وقد تناسبت أعضاؤه، حتى خيّل إليّ أن كلاً منها مسحور بحب رفيقه.

وفي الحال لبست أفخر أثوابي الدمشقية، وتركت بيتي وسرت إليه.

هل دفعتني وحدتي أم طيب شذاه حملني إليه؟

وهل مجاعة عيني الرغبة في الجمال، أم جماله الذي كان يفتش عن النور في عيني؟

إنني حتى الساعة لا أعلم.

مشيت إليه بأثوابي العطرة وحذائي الذهبي، الذي أعطانيه القائد الروماني، نعم ذلك الحذاء بعينه! وعندما وصلت إليه قلت له: انعم صباحاً.

فقال: نعمت صباحاً يا ميريام.

ثم نظر إليّ، فرأت فيّ عيناه السوداوان ما لم يره رجل قبلهن فشعرت فجأة كأنّني عارية وخجلت في ذاتي.

بيد أنه لم يقل سوى: نعمت صباحاً.

حينئذ قلت له: أفلا تريد أن تدخل إلى بيتي؟

فقال: أما أنا الآن في بيتك؟

إنني لم أعلم ما عناه آنئذ، ولكنني أعلم الآن.

فقلت له: أفلا تريد أن تشرب الخمر وتكسر الخبز معي؟

فأجاب: نعم يا ميريام، ولكن ليس الآن.

ليس الآن، ليس الآن، هكذا قال لي، وكان صوت البحر في هاتين الكلمتين، وصوت الريح والأشجار. وعندما قالهما لي تكلمت الحياة مع الموت.

فاذكر يا صاح ولا تنس أنّني كنت ميتة. فقد كنت امرأة طلقت نفسها. وكنت أعيش بعيدة عن هذه الذات التي تراها الآن. فقد اختصصت بجميع الرجال، ولم أختص بأحد، فكانوا يدعونني عاهرة، وامرأة فيها سبعة شياطين. كنت ملعونةً من الجميع ومحسودةً من الجميع.

ولكن عندما نظر فجر عينيه إلى عينيّ غابت جميع كواكب

ليلي وصرتُ ميريام، ميريام فقط، امرأة ضاعت عن الأرض التي عرفتها ووجدت نفسها في أماكن جديدة.

ثم قلت له ثانية: هلمّ إلى بيتي وشاركني بخمرتي وخبزي.

فقال: لماذا تلحين على أن أكون ضيفك؟

فقلت:أتوسل إليك أن تدخل إلى بيتي. وكان كل ما بي من الأرض وكل ما بي من السماء يناجيه ويدعوه ويطلبه.

حينئذ نظر إليّ، فأشرقت ظهيرة عينيه على روحي، وقال: إن لك كثيرين من المحبين، بيد أنني أنا وحدي أحبك، فإن بقية الرجال يحبون أنفسهم في قربك، أما أنا فأحبك في نفسك. إن بقية الرجال ينظرون فيك إلى جمال يذوي قبل انتهاء سنيهم. إن بقية الرجال ينظرون فيك إلى جمال يذوي قبل انتهاء سنيهم، أما الجمال الذي أراه فيك فإنه لن يزول، وفي خريف أيامك لن يخاف ذلك الجمال أن ينظر إلى ذاته في مرآة، ولن يقدر أحد أن يعيبه.

أنا وحدي أحب ما لا يُرى فيك.

ثم قال بصوت واطئ: أمضي في طريقك الآن. وإذا كانت هذه السروة لك ولا تريدين أن أجلس في ظلها، فأنا أيضاً في طريقي.

فتوسلت إليه بدموع قائلة: يا معلم، ادخل إلى بيتي. إن لديّ بخوراً أحرقه أمامك، وطستاً من الفضة لغسل قدميك. أنت غريب ولكنك لست بالغريب، لذلك أتضرع إليك أن تدخل إلى بيتي.

في تلك اللحظة وقف ونظر إلي كما تنظر الفصول إلى الحقل وتبسم وقال ثانية: إن جميع الرجال يحبونك لأجل ذواتهم أما أنا فأحبك لأجل ذاتك.

قال هذا وسار في طريقه.

ولكن ما من رجل مشى مشيته قط. هل ولدت في بستاني نسمة علوية ثم سارت إلى الشرق؟ أم هي عاصفة جاءت تزعزع كل شيء لتردّه إلى أسسه الأصلية؟

إنّني لم أعلم. ولكن في ذلك اليوم ذبح غروب عينيه الوحش الذي كان فيّ، فصرتُ امرأةً، صرتُ ميريام، مريم المجدلية.

فيليمون الصيدلي اليوناني
يسوع أمير الأطباء

كان الناصري سيد الأطباء في شعبه. وما من رجل غيره عرف ما عرفه هو عن أجسادنا وعناصرها ومحتوياتها.

فقد أبرأ الناس من أمراض غريبة لم يعرفها اليونانيون ولا المصريون.

يقولون إنّه أقام الأموات من القبور. وإذا كان هذا حقيقياً أم لا فإنه يظهر قوته، لأن أعاظم الأمور لا يمكن أن تنسب إلا لمن يستطيع أن يقوم بالأمور العظيمة.

ويقولون أيضاً إن يسوع زار الهند وبلاد ما بين النهرين، وإن الكهنة الذين كانوا في تلك البلاد أعلنوا له المعرفة المخفية في أعماقنا.

ولكن من يدري، فقد تكون الآلهة منحته تلك المعرفة مباشرة وليس بواسطة الكهنة، لأن الذي تخفيه الآلهة عن جميع الناس جيلاً كاملاً كثيراً ما تعلنه لرجل واحد في لحظة واحدة، وأبولو إذا وضع يده على قلب الجهول الوضيع جعله حكيماً رفيعاً.

إن أبواباً كثيرة قد فتحت لأبناء صور وتيبت؛ وهنالك كثير

من الأبواب التي كانت موصدة ومختومة فانفتحت أمام هذا الرجل. فقد دخل إلى هيكل النفس، الذي هو الجسد، ورأى الأرواح الشريرة التي تتآمر على قوتنا وبأسنا، كما رأى الأرواح الصالحة التي تغزل خيوطها.

وفي عقيدتي أنه كان يشفي المرضى على سبيل المقاومة والمعارضة، ولكن الطريقة التي اتخذها لنفسه لم تكن معلومة لدى فلاسفتنا، فكان يدهش الحمى بملامسته الجليدية فترتدّ هاربة، ويذهل الأعضاء اليابسة بقوة هدوئه العجيب فتطيعه وتعود إلى سلامتها.

أجل، قد عرف الناصري العصارة الزائلة في قشرة شجرتنا المتشققة. ولكن كيف اتصل بتلك العصارة بأصابعه؟ ذلك ما لا أعرفه! وعرف الفولاذ الصحيح تحت الصدأ. ولكن ما من رجل يقدر أن يحدثنا كيف حرر السيف من صدئه وأعاد إليه بريقه.

كثيراً ما يخطر لي أنّه كان يصغي إلى أعمق الآلام التي في جميع الكائنات الحية أمام الشمس، فيعمد في الحال إلى رفعها ومساعدتها، ليس بمعرفته فقط بل بإظهار طريق قوتها لتنهض من آلامها صحيحة سالمة.

بيد أنّه لم يعبأ قط بمقدرته كطبيب، بل كان جلّ همه معالجة المواضيع الدينية والسياسية في هذه البلاد. وأنا متألم لأجل

هذا. لأنّنا قبل جميع الأشياء يجب أن نكون أصحاء الأجساد.

ولكن هؤلاء السوريين إذا أصابهم مرض لا يفتشون عن الدواء بل ينشدون المباحثة والمبادلة. ومصيبتهم الكبرى أن أعظم أطبائهم أعرض عن فنّه المفيد واختار أن يكون خطيباً في ساحة المدينة.

سمعان بطرس
دعوته مع أخيه

كنت على شاطئ البحيرة عندما رأيت يسوع، ربي ومعلمي، لأول مرّة.

كان أخي أندراوس معي، وكنا نلقي شبكتنا في المياه.

وكانت الأمواج طاغية هائجة ولذلك لم نمسك إلا قليلاً من السمك. وكان الحزن يملأ قلبينا.

فوقف يسوع بقربنا فجأة كأنّه تكوَّن في تلك اللحظة لأنّنا لم نرَه يدنو منّا.

ثم دعانا كلاً باسمه وقال: إذا تبعتماني فإنّي أقودكما إلى مدخل في الشاطئ حافل بالأسماك.

وإذ نظرت إلى وجهه سقطت الشبكة من يديّ، لأن نوراً أشرق في أعماقي فعرفته.

فتكلم أخي أندراوس وقال له: نحن نعرف جميع مداخل هذه الشواطئ ونعرف أيضاً أن الأسماك في مثل هذا اليوم الكثير الرياح تنشد أعماقاً لا تصل إليها شباكنا.

فأجاب يسوع وقال: أتبعاني إذن إلى شواطئ البحر اللأعظم فأجعلكما صيادي الناس. ولن تكون شباككما فارغة.

فتركنا سفينتنا وشباكنا وتبعناه.

أما أنا فقد اتبعته مسوقاً بقوة غير منظورة كانت تسير معه جنباً إلى جنب.

كنت أمشي إلى جانبه منقطع النفس والعجب آخذ منّي كل مأخذ، وكان أخي أندراوس وراءنا متحيراً منذهلاً.

وفيما نحن نمشي على الرمل تشجعت وقلت له: يا سيد؛ أنا وأخي سنتبعك، وحيث سرت فنحن نسير معك، ولكن إذا حسن لديك أن تذهب معنا إلى منزلنا في هذه الليلة فإنّنا نتبارك بزيارتك. إن بيتنا ليس كبيراً وسقفنا ليس عالياً، وستأكل طعاماً حقيراً فيه. بيد أنّك إذا دخلت إلى كوخنا فإنّه يصير قصراً في عقيدتنا. وإذا كسرت الخبز معنا فإن أمراء الأرض يحسدوننا على جلوسنا في حضرتك.

فقال لي: نعم سأكون ضيفكم في هذه الليلة.

فطار قلبي فرحاً من جوابه. وهكذا سرنا وراءه صامتين حتى وصلنا إلى البيت.

وعندما وقفنا على عتبة الباب قال يسوع: سلام لهذا البيت والساكنين فيه.

ثم دخل ونحن نتبعه.

وهنالك رحّبت به زوجتي وحماتي وابنتي وخررن ساجدات أمامه، وقبّلن أطراف أكمامه.

كنّ متحيرات كيف أنّهع وهو المختار الحبيب يأتي ليكون ضيفنا، لأنهنّ كنّ رأينه قبلاً في نهر الأردن عندما أعلنه يوحنا للشعب.

وفي الحال شرعت زوجتي وحماتي في تهيئة العشاء.

أما أخي أندراوس فكان حييّاً بطبيعته، ولكن إيمانه بيسوع كان أعمق من إيماني.

وأما ابنتي التي كانت آنئذ في الثانية عشرة من العمر فإنها وقفت إلى جانبه وأمسكت طرف ثوبه خوفاً منها أن يتركنا ويسير في الليل ثانية، فكانت متعلقة به كأنها خروف ضال وجد راعيه.

وعندما أعدّ العشاء جلسنا إلى المائدة فكسر الخبز وسكب الخمر، والتفت إلينا وقال: أيها الأصدقاء باركوني الآن وشاركوني في هذا الطعام كما أن الأب قد باركنا بإعطائه لنا.

قال هذه الكلمات قبل أن يتناول كسرة واحدة، لأنّه أراد أن يحافظ على العادة القديمة: إن الضيف المحترم يصير رب المنزل.

وإذ جلسنا معه حول المائدة شعرنا في أعماقنا بأنّنا جالسون إلى وليمة الملك العظيم.

وكانت ابنتي بترونيلة الصغيرة الساذجة، تتأمّل وجهه وتتبع بنظراتها حركات يديه، وكانت سحابة من الدموع تغشى عينينها.

وعندما ترك المائدة تبعناه وجلسنا حواليه تحت مظلة الدوالي.

كان يخاطبنا ونحن نصغي إليه وقلوبنا تخفق في أعماقنا كالعصافير.

فقد تكلم عن المجيء الثاني للإنسان، وعن فتح أبواب السماء، وعن الملائكة النازلين لحمل السلام والمسرة لجميع الناس، وعن الملائكة الصاعدين لحمل تشوّقات الناس لرب الإله.

في تلك الدقيقة نظر إلى عينيّ وحدّق إلى أعماق قلبي وقال: قد اخترتك أنت وأخاك؛ فيجب أن تذهبا معي. قد اشتغلتما وتعبتما وها أنا أريحكما. احملا نيري وتعلما منّي. لأن قلبي ممتلئ بالسلام، وستجد فيه نفسكما موطنها وكمال حاجاتها.

وعندما قال هذا وقفتُ أنا وأخي أمامه وقلتُ له: يا معلم سنتبعك إلى أقاصي الأرض. ولو كان حملنا ثقيلاً كالجبال فإنّنا سنحمله في طريقنا إلى السماء، ونقبل كل هذا برضى وقناعة.

ثم قال له أخي أندراوس: يا معلم نودّ أن نكون خيوطاً بين يديك ونولك، فلك إذا شئت أن تحوك منا قماشاً، لأنّنا نعلم أنّنا نكون في ثوب الكلي الرفعة.

فرفعت زوجتي رأسها وقالت والدموع تملأ وجنتيها من شدة

الفرح: مبارك أنت الآتي باسم الرب! طوبَى للبطن الذي حملك والثدي الذي أرضعك!

كانت ابنتي جالسة عند قدميه تضمهما إلى صدرها.

أما حماتي التي كانت جالسة إلى عتبة الباب فإنّها لم تقل كلمة قط، ولكنها كانت تبكي بهدوء حتى امتلأ وشاحها من الدموع.

فمشى يسوع إليها ورفع رأسها وحدق إلى عينيها وقال لها: أنت أم جميع هؤلاء الأصحاب، إنّك تبكين الآن من الفرح، ولذلك سأحفظ دموعك في ذاكرتي.

حينئذٍ طلع البدر الجميل علينا فنظر إليه يسوع هنيهة وقال لنا: قد تأخرنا في سمرنا، فاذهبوا إلى فراشكم وليرافق الربّ راحتكم، أما أنا فأظل في هذه المظلة حتى الفجر. قد ألقيت شبكتي في هذا اليوم فاصطدت رجلين، وأنا راضٍ عن صيدي. فأستودعكم الآن وأرجو لكم ليلة سعيدة.

فقالت له حماتي: قد أعددنا لك فراشاً في المنزل فأتوسل إليك أن تدخل وتستريح.

فأجابها قائلاً: إنّني حقاً أريد الراحة، ولكن ليس تحت السقوف، فاسمحوا لي أن أنام الليلة تحت مظلة الدوالي والنجوم.

فأسرعت وأخرجت الفراش والوسادة واللحاف، فنظر إليها

مبتسماً وقال: ها أنا أتكئ على فراش قد أُعِدّ مرّتين!

حينئذ تركناه ودخلنا إلى البيت، وكانت ابنتي آخر من تركه ودخل، وكانت عيناها تنظران إليه حتى أغلقت الباب.

هكذا عرفت ربي ومعلمي لأول مرّة.

ومع أنّه مرّ على هذا أعوام عديدة فإنّني أذكره كأنما حدث لي في هذا اليوم.

قيافا رئيس الكهنة
قد قتلناه بضمير نقي

يجدر بنا إذ نتكلم عن ذلك الرجل يسوع وعن موته أن نذكر حقيقتين بارزتين: سلامة التوراة في أيدينا، وسلامة المملكة في أيدي الرومانيين.

ولكن ذلك الرجل كان خطراً علينا وعلى رومة، فقد سمم أفكار الشعب البسيط وقاد بسحر عجيب إلى الثورة علينا وعلى القيصر.

إن عبيدي أنفسهم، الرجال منهم والنساء، بعد أن سمعوه يخطب في ساحة المدينة، امتلأوا بروح التمرد والعصيان. وكثيرون منهم تركوا منزلي ورجعوا إلى الصحراء التي قدموا منها.

ولا تنسَ أيها القارئ أن التوراة هي أساس قوتنا وقبة نصرنا. وما من رجل يقدر أن يهلكنا طالما أن هذه القوّة بأيدينا لنغلّ يده. وما من رجل يستطيع أن يخرب أورشليم وجدرانها قائمة على الحجر القديم الذي وضعه داود بيده.

فإذا كان لزرع إبراهيم أن يعيش وينمو فإن هذه الأرض يجب أن تظلّ نقية.

وذلك الرجل يسوع كان يريد أن ينجسها بالمعصية، لذلك

قتلناه بضمير نقي بصير بالعواقب، وسنقتل كل من يجرؤ أن ينجس شريعة موسى أو يضلل ميراثنا المقدس.

نحن وبيلاطس البنطي عرفنا الخطر الذي كان في ذلك الرجل، ولذلك رأينا من الحكمة أن نضع حدّاً لحياته.

وإنا باذل قصاراي لأنزل بأتباعه وبتعاليمه نفس ما أنزلته به.

إذا كانت اليهودية تود أن تعيش، فإن كل من يقاومها يجب أن يصير إلى التراب. وقبل أن تموت اليهودية سأغطي رأسي الأبيض بالرماد كما فعل صموئيل النبي، وسأمزق هذه الحلة المقدسة التي كانت لهرون، وألبس المسوح حتى أسير من هنا إلى الأبد.

يونا امرأة حافظ هيرودس في الأولاد

لم يتزوج يسوع قطّ ولكنه كان صديقاً للنساء؛ فقد عرفهنّ كما يجب أن يعرفهنّ الجميع، في الصداقة النقية.

وكان يحبّ الأولاد كما يجب أن يحبهم الناس بالإيمان والفهم.

وكان في نور عينيه حنان الأب ومحبة الشقيق ولهفة الابن.

فهو يحمل صبيّاً صغيراً ويضعه على ركبتيه ويقول: بمثل هذا قوتكم وحريتكم، وبمثل هذا يتكوّن ملكوت الروح.

يقولون إن يسوع لم يعبأ بشريعة موسى، وإنّه كان كثير الصفح عن الزواني في أورشليم والبلاد المحيطة بها.

وأنا نفسي كنت في ذلك الوقت زانية في نظر الناس، لأنني أحببت رجلاً لم يكن زوجاً لي، وكان صدوقيّاً.

وفي أحد الأيام جاء الصدوقيون إلى بيتي وكان عشيقي معي، فقبضوا عليّ وحبسوني. أما عشيقي فهرب وتركني.

ثم قادوني إلى ساحة المدينة حيث كان يسوع يعلم الجموع.

وكانوا يرغبون في تقديمي إليه ليجربوه ويصطادوه بفخاخهم.

ولكن يسوع لم يحكم عليّ. فقد ألبس العار لمن جاؤوا بي إليه ليلبسوني ثوب العار، وأوسعهم لوماً وتوبيخاً.

أما أنا فإنّه أطلقني بسلام.

وبعد ذلك صارت جميع أثمار الحياة التي لا طعم لها لذيذة طثتفي فمي، والورود التي لا عطر لها صارت منبعاً للعطر الجميل في منخري. فصرت امرأة لا تعرف الذكرى الفاسدة. أجل، صرت حرة، مرتفعة الرأس، كسائر بني البشر.

رفقة

عروس قانا

حدث هذا قبل أن عرفه الشعب.

كنت في بستان أمّي أتعهد الورود عندما وقف يسوع أمام بوابتنا.

فقال: أنا عطشان. أتتفضّلين عليّ بقليل من ماء بئركم؟

فركضت وأحضرت الكأس الفضية وملأتها ماء وسكبت فيها بضع نقط من قارورة الياسمين.

فشرب وارتوى وكان مسروراً.

ثم نظر في عينيّ وقال لي: فلتحلّ عليك بركتي.

وعندما قال هذا شعرت بأن ريحاً علوية تسير في جسدي، ففارقني ما تولاني من الحياء عند رؤيته فقلت: يا سيدي، إنّني مخطوبة لرجل من قانا الجليل، وسأزف إليه في اليوم الرابع من الأسبوع المقبل. أفلا تريد أن تحضر إلى عرسي فتبارك زواجي بحضورك؟

فأجاب وقال: سأحضر يا ابنتي.

وما أنسى قوله لي: يا ابنتي، في حين أنّه كان شابّاً بعد، وأنا

كنت في نحو العشرين من العمر.

ثم سار في طريقه. أما أنا فبقيت واقفة أمام بوابة البستان حتى دعتني أمي إلى البيت.

وفي اليوم الرابع من الأسبوع التالي أخذني أهلي إلى بيت عريسي وزفوني إليه.

وجاء يسوع تصحبه أمه وأخوه يعقوب.

وكانوا جالسين حول مائدة العرس مع ضيوفنا، ورفيقات صباي ينشدن لي أغاني الأعراس التي نظمها سليمان الملك. وكان يسوع يأكل من طعامنا ويشرب من خمرتنا ويبتسم لجميع الحاضرين. وكان يصغي إلى جميع أناشيد المحب الذي يحضر محبوبته إلى خيمته، وأغاني الكرّام الشاب الذي أحبّ ابنة ربّ الكرم وقادها إلى بيت أمه، والأمير الذي رأى الفتاة الفقيرة فحملها إلى مملكته وتوجها بتاج آبائه.

ويلوح لي أنّه كان يصغي إلى أناشيد أخرى غير هذه لم أقدر أنا أن أسمعها.

وعند غروب الشمس جاء والد العريس إلى أم يسوع وأسرّ إليها قائلاً: لم يبق عندنا خمر لضيوفنا، ويوم العرس لم ينته بعد. فسمع يسوع ما أسرّ به الرجل إلى أمه وقال: إن ساقي الخمرة يعرف أنّه لا يزال عندكم خمر كثير.

وهكذا كان بالحقيقة، فإن الخمر وجدت بكثرة طيلة إقامة الضيوف في منزلنا.

حينئذ شرع يسوع يخاطبنا، فكان يحدثنا بعجائب الأرض والسماء، ويشرح لنا عن ورود السماء التي تزهر عندما يمدّ الليل بساطه على الأرض، وعن ورود الأرض التي تزهر عندما تختفي الكواكب في نور النهار.

وكان يقصّ علينا قصصاً وأمثالاً، فيأخذ سحر صوته بمجامع قلوبنا، فنحدق إلى عينيه كأنّنا نرى رؤى سماوية متناسين الكأس والصحفة أمامنا.

وكنت أشعر وأنا أصغي إليه أنّني في أرض قصية مجهولة.

وبعد هنيهة قال أحد الضيوف لوالد عريسي: قد أبقيت الخمر الجيدة إلى آخر الوليمة، وغيرك من المضيفين لا يفعلون هذا.

وجميع الذين كانوا في البيت آمنوا أن يسوع اجترح أعجوبة وأنّه يجب أن تكون لهم خمرة في آخر وليمة العرس أطيب من الخمرة التي تقدم في بداءاته.

وأنا أيضاً ظننت أن يسوع سكب الخمرة الجيدة، ولكنني لم أتعجب، لأنّني كنت قد أصغيت إلى كثير من العجائب في صوته.

وقد ظل صوته بعد ذلك قريباً من قلبي حتى ولدت ابني البكر.

وحتى اليوم يتحدث الناس في قريتنا وفي القرى المجاورة بكلام ضيفنا العزيز. وهم يقولون أبداً: إن روح يسوع الناصري هي أفضل خمرة وأعتقها.

فيلسوف فارسي في دمشق
الآلهة قديماً وحديثاً

إنّني لا أقدر أن أنبئ بمصير هذا الرجل، ولا أستطيع أن أتنبّأ بما سيحدث لتلاميذه.

فإن البذرة المختفية في قلب التفاحة هي شجرة غير منظورة، ولكن إذا سقطت تلك البذرة على صخرة فإنها ولا شك صائرة إلى لا شيء.

ولكنني أقول هذا: إن إله إسرائيل العتيق الأيام قاسٍ لا يعرف الرحمة، ولذلك يجب أن يكون لإسرائيل إله جديد: إله لطيف رحوم ينظر إليهم باللين والشفقة، إله ينحدر مع أشعة الشمس ويسير على طريق حدودهم الضيقة، عوضاً عن إلههم القديم الجالس أبداً في كرسي القضاء يزن أغلاطهم ويقيس هفواتهم.

يجب أن يكون لإسرائيل إله لا يعرف الحسد سبيلاً إلى قلبه، ولا يحتفظ في ذاكرته بالكثير من سيئاتهم، إله لا ينتقم منهم بافتقاد ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع.

فالإنسان في سورية كأخيه الإنسان في كل مكان، فهو ينظر إلى مرآة فهمه وهنالك يجد إلهه. وهو يصنع الآلهة على صورته ومثاله، ويعبد كل ما تنعكس فيه صورته.

إلا أن الإنسان بالحقيقة يصلي إلى حنينه العميق لينهض ويكمل مجموع رغباته.

ليس في الوجود شيء أعمق من نفس الإنسان، والنفس هي العمق الذي ينشد ذاته، لأنّه ليس ثمة صوت آخر ليتكلم ولا آذان أخرى لتسمع.

ونحن أنفسنا في بلاد فارس ننظر إلى وجوهنا في قرص الشمس وترى أجسادنا راقصة في النار التي نشعلها على مذابحنا.

وفي عقيدتي أن إله يسوع، الذي دعاه أباً، لن يكون غريباً بين شعب هذا المعلم، ولذلك سيحقق رغباتهم.

إن آلهة مصر قد ألقوا عنهم أحمال الحجارة وهربوا إلى برية النوبة ليكونوا أحراراً بين الذين ما برحوا أحراراً من المعرفة.

وآلهة اليونان ورومة تسير شمسهم إلى الغروب. فقد كانوا كثيري الشبه بالناس ولذلك لم يقدروا أن يعيشوا في تأمّلات الناس. والغابات التي نشأ فيها سحرهم قطعتها فؤوس الأثينائيين والإسكندريين.

وفي هذه الأرض نرى الأماكن الرفيعة تتحول رفعتها إلى ضعة متشرعي بيروت ونسّاك أنطاكية.

فلا ترى غير الشيوخ والمتعبين من النساء والرجال يسيرون إلى هياكل آبائهم وأجدادهم، ولا ينشد بداءة الطريق إلاّ الذين ضلوا

في آخرها.

ولكن هذا الرجل يسوع، هذا الناصري العجيب، قد تكلم عن إله يسع في ملئه جميع النفوس، وقد تعاظمت معرفته حتى سمت عن العقوبة وتسامت محبته حتى ترفّعت عن ذكر خطايا خلائقه. وإله الناصري هذا سيجوز بعتبة جميع أبناء الأرض، وسيجلس إلى مواقدهم، وسيكون لهم بركة داخل جدرانهم ونوراً في طريقهم.

بيد أنّ لي إلهاً هو إله زورستر، الإله الذي هو شمس في السماء، ونارٌ في الأرض، ونورٌ في حضن الإنسان. وأنا راضٍ به، ولا حاجة بي إلى إله سواه.

داود أحد أتباعه

يسوع العملي

إنّني لم أعرف معنى خطبه وأمثاله حتى فارقنا. نعم أنا لم أفهم شيئاً من أقواله حتى اتخذت كلماته أشكالاً حية أمام عيني وكونت ذواتها بأجساد تمشي في مواكب أيامي.

وإليكم ما حدث لي: كنت في إحدى الليالي جالساً في بيتي أتأمل وأتذكّر كلماته وأعماله لأدوّنها في كتاب، فدخل ثلاثة لصوص إلى بيتي، ومع أنّني عرفت أنهم جاؤوا ليسرقوا ما عندي فإنّني كنت مأخوذاً بالإيمان بما كنت أفكر فيه إلى هذه الدرجة حتى إنّني لم أقاومهم بالسيف ولا سألتهم ماذا تفعلون هنا!

ولكني واظبت على كتابة مذكراتي عن المعلم.

وعندما انصرف اللصوص ذكرت قوله: من طلب رداءك فأعطه الثوب أيضاً، وفهمت معناه.؟

وعندما جلست أدوّن أقواله لم يكن في الأرض رجل يستطيع أن يحولني عن عملي ولو سرق كل مقتنياتي.

لأنّني مع شدة حرصي على مقتنياتي، واهتمامي بحماية ذاتي، فإني أعرف أين أجد هذا الكنز الأعظم.

لوقا
في المرائين

قد احتقر يسوع المرائين، وبالغ في تعنيفهم، وكان غضبه ينقضّ عليهم انقضاص الصاعقة. وكان صوته رعداً في آذانهم ترتعش لهوله قلوبهم.

وقد طلبوا موته لشدة خوفهم منه، وكانوا كالمناجذ في ظلمة الأرض يعملون على هلاك خطواته، ولكنه لم يسقط في فخاخهم.

فكان يضحك منهم، لأنّه عرف جيّداً أن الروح يجب ألا يُهزأ بها، وألاّ يُسار بها إلى الحفرة.

وكان يمسك مرآة بيده وهنالك يرى الكسالى والعرج والعابرين والساقطين في جوانب الطريق وهم يسيرون إلى القنة.

فأشفق على الجميع. ورغب في أن يرفعهم إلى ملء قامته ويحمل أثقالهم. أجل، فقد تمنّى كثيراً لو يتكىءُ ضعفاؤهم على ذراع قوته.

لم يكن شديد الوطأة في حكمه على الكذاب أو اللصّ أو القاتل. ولكنه قضى قضاءً مبرماً على المرائين الذين يبرقعون وجوههم ويغطون أيديهم.

كثيراً ما وقفت مفكراً في ذلك القلب الذي كان يقتبل

جميع القادمين من صحراء الحياة إلى مقدسه العظيم فيهبهم راحة وملجأ، ولم يغلق بابه إلا في وجوه المرائين فقط.

حدث مرة فيما نحن جالسون معه في بستان الرمان أنّني قلت له: يا معلم، أنت تصفح عن الخطاة، وتعزي جميع الضعفاء والسقماء ولا ترفض إلا المرائين.

فقال لي: قد وضعت كلماتك في مواضعها عندما دعوت الخطاة ضعفاء وسقماء. نعم أنا أصفح عن ضعف أجسادهم وسقم أرواحهم، لأن قصورهم عن القيام بواجبهم قد وضع حملاً على أكتافهم إمّا من آبائهم أو من جيرانهم.

غير أنّني لا أحتمل المرائين، لأنّهم يضعون النير الثقيل على رقاب المخلصين والطائعين.

أما الضعفاء الذين تسميهم خطاة، فهم كالفراخ التي لا ريش لها الساقطة من العش. ولكن المرائي نسرٌ جالس على صخرة يتوقع فريسة بريئة لينقضّ عليها.

الضعفاء هم رجال ونساء ضائعون في صحراء ولكن المرائي غير ضائع فهو يعرف الطريق ولكنه يضحك بين الرمال والرياح.

لأجل هذا لا أقبل المرائين في شركتي.

هكذا تكلم معلمنا، فلم أفهم معنى كلامه في ذلك الوقت ولكنني أفهم اليوم.

لذلك اجتمع المراؤون في البلاد، وألقوا القبض عليه، وحكموا بقتله، ظانين أنهم مبررّون بعدائه لهم. وكانوا يقرّبون شريعة موسى في مجمع اليهود شهادة وبيّنة ضدّه.

إن الذين يكسرون الشريعة عند بزوغ كلّ فجر، ثم يكسرونها ثانية عند غروب كل شمس، هم الذين عملوا على موته.

متى
العظة على الجبل

في أحد أيام الحصاد دعانا يسوع وفريقاً من أصدقائه الآخرين إلى التلال. وكانت الأرض تفوح بعطرها وقد تزينت بأبهى حلاها كأنّها ابنة ملك عظيم في يوم زفافها. وكانت السماء عروساً لها.

وعندما وصل إلى الأعالي وقف في غابة الغار والهدوء يجلل طلعته البهيّة وقال: استريحوا هنا وافتحوا نوافذ أفكاركم ودوزنوا أوتار قلوبكم لأن لديّ كثيراً أقوله لكم.

فاتكأنا على بساط العشب تحيط بنا ورود الصيف، وجلس يسوع في وسطنا.

فقال يسوع:

طوبى للرصينين بالروح.

طوبى لمن لا تقيدهم مقتنياتهم، لأنهم سيكونون أحراراً.

طوبى لمن يتذكرون آلامهم، وفي آلامهم يرقبون أفراحهم.

طوبَى للجياع للحق والجمال، لأن مجاعتهم ستحمل لهم خبزاً، وعطشهم ماءً عذباً.

طوبَى للرؤوفين، لأنّهم سيتعزون بلطفهم ورأفتهم.

طوبَى لأنقياء القلب، لأنّهم سيكونون واحداً مع الله.

طوبَى للرحماء، لأن الرحمة ستكون في نصيبهم.

طوبَى لصانعي السلام، لأن أرواحهم ستقطن فوق المعركة وسيحوّلون حقل الخزّاف إلى جنّة غنّاء.

طوبى للمطاردين، لأن أقدامهم ستكون سريعة وسيكونون مجنّحين.

افرحوا وابتهجوا، لأنّكم قد وجدتم ملكوت السماوات في أعماقكم. إن مرنمي القدماء قد اضطهدوا عندما تغنّوا بذلك الملكوت. وأنتم أيضاً ستضطهدون، وفي هذا شرفكم وفيه أجركم.

أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح فبماذا يصلح الطعام لقلب الإنسان؟

أنتم نور العالم، فلا تضعوا هذا النور تحت المكيال، بل فليشرق نوركم من الأعالي لجميع الذين ينشدون مدينة الله.

لا تظنوا بل فليشرق نوركم من الأعالي لجميع الذين ينشدون مدينة الله.

لا تظنوا أني جئت لأبطل شرائع الكتبة والفريسيين، لأن أيامي بينكم معدودة وكلماتي محدودة، وليس لديّ سوى بضع ساعات سأكمل فيها شريعة ثانية وأوضح عهداً جديداً.

قد قيل لكم ألا تقتلوا، أما أنا فأقول لكم لا تغضبوا لغير سبب.

قد قضى عليكم القدماء أن تحملوا عجولكم وحملانكم وحمامكم إلى الهيكل وأن تذبحوها على المذبح، لتتغذى مشامّ الرب برائحة دهنها، وتُغفر بذلك زلاتكم.

أما أنا فأقول لكم: هل تقدرون أن تعطوا الرب ما كان له منذ البدء؛ أم هل تسكّنون غضبه، وعرشه يسمو على الأعماق الصامتة، وهو يحوّط الفضاء بذراعيه؟

فتشوا بالأحرى عن أخيكم وتصالحوا معه قبل أن تجيئوا إلى الهيكل، وأعطوا جاركم بمحبة ما عندكم. لأنّه في نفس هؤلاء قد بنى الله هيكلاً لن يخرب، وفي قلبهم قد أقام مذبحاً لن ينقض.

قيل لكم: عين بعين وسنّ بسنّ، أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّ، لأن المقاومة تغذّي الشرّ وتزيده قوة. ولا ينتقم لنفسه غير الضعيف. أما الأقوياء بالروح فإنهم يسامحون، ولمن تقع عليه الأذية شرف سامٍ بصفحه وسماحه.

لا تهتموا بالغد بل تأمّلوا باليوم لأنّه يكفي اليوم أعجوبته.

لا تبالغوا في الاعتداد بأنفسكم عندما تعطون مما هو لكم وانظروا بالأولى إلى حاجة من تعطون، لأن كل من يعطي غيره

من المحتاجين يعطيه الأب نفسه بأوفر غزارة.

أعطوا كل محتاج حسب حاجته، لأن الأب لا يعطي ملحاً للعطشان، ولا حجراً للجائع، ولا حليباً للمفطوم.

ولا تعطوا القدسات للكلاب، ولا تطرحوا درركم للخنازير، لأنّكم بهذه العطايا تهزأون بها، وهي أيضاً ستهزأ بعطاياكم، وقد يحملها بغضها إلى إهلاككم.

لا تكنزوا لكم كنوزاً تفسد أو يسرقها اللصوص، بل اكنزوا لكم كنوزاً لا تفسد ولا تسرق، ولكنها تزداد جمالاً كلما ازدادت العيون الناظرة إليها. لأنّه حيث يكون كنزك فهنالك قلبك أيضاً.

قد قيل لكم: إن القاتل يجب أن يسلم للسيف، وإن اللّص يجب أن يصلب، والزانية يجب أن ترجم. أما أنا فأقول لكم إنّكم لستم أبرياء من جريمة القاتل واللصّ والزانية؛ وإذا حلّ العقاب بأجسادهم فإن أرواحكم تظلم في أعماقكم.

بالحقيقة أنّه ما من جريمة يرتكبها رجل فرد أو امرأة وحدها. إن جميع الجرائم يشترك الجميع في ارتكابها، أما الذي يدفع الجزاء فإنّه يقطع حلقةً من السلسلة المعلقة حول كعابكم. وقد يكون يدفع بكآبته ثمن أفراحكم الزائلة.

هكذا تكلم يسوع؛ وقد رغبت في السجود أمامه احتراماً

وإجلالاً، ولكن خجلي من ذاتي الحقيرة كان يمسك بي فلم أقدر أن أتحرك من مكاني ولا أن أتلفظ بكلمة واحدة.

بيد أنّني تشجعت أخيراً وقلت له: إنّني أودّ أن أصلي في هذه الدقيقة، ولكن لساني ثقيل. فعلمني كيف أصلي.

فقال يسوع: إذا صليتم فلينطق حنينكم بكلمات الصلاة، وفي أعماقي الآن حنين يود أن يصلي هكذا:

أبانا الذي في الأرض والسماوات، ليتقدس اسمك.

لتكم مشيئتك معنا كما هي في الفضاء.

أعطنا من خبزك كفاية ليومنا.

برأفتك أصفحْ عنّا ووسّع مداركنا لنصفح بعضنا عن بعض.

سر بنا إليك، ومدّ يدك إلينا في الظلمة.

لأن لك الملك، وبك قوّتنا وكمالنا.

وكان المساء، فنزل يسوع من التلال ونحن نتبعه جميعاً. أما أنا فكنت أتبعه وأنا أردّد صلاته، متذكّراً جميع أقواله، لأنّني عرفت أن الكلمات التي تساقطت في ذلك اليوم كقطع الثلج يجب أن تستقرّ وتتحجر كالبلور، وأن الأجنحة التي كانت تخفق فوق رؤوسنا يجب أن تضرب الأرض كالحوافر الحديدية.

يوحنا بن زبدي
في أسماء يسوع المختلفة

قد أشرتم إلى أن فريقاً منّا يدعون يسوع ((بالمسيح)) وغيرهم ((الكلمة)) وآخرون يسمونه ((الناصري)) وغيرهم ((ابن الإنسان)).

وها أنا آت لأوضح لكم معاني هذه الأسماء كما أعطي لي أن أفهمها.

فالمسيح، الذي كان في قديم الزمان، هو شعلة الألوهية التي تقيم في روح الإنسان، هو نسمة الحياة التي تزورنا، وتتخذ جسداً كأجسادنا.

هو مشيئة الله.

هو الكلمة الأولى التي تتكلم بأصواتنا وتقطن في آذاننا لنفهم ونعلم. وكلمة الرب إلهنا قد بنت بيتاً من اللحم والعظم وصارت إنساناً مثلك ومثلي.

لأنّنا لم نقدر أن نسمع أنشودة الريح التي لا جسد لها، ولم نرَ ذاتنا العظمى سائرة في الضباب.

مراراً كثيرة جاء المسيح إلى العالم وقد مشى في بلاد كثيرة بيد أنّه حُسب غريباً بين الناس ومجنوناً أبداً.

ولكن صدى صوته لم يذهب عبثاً، لأن ذاكرة الإنسان

كثيراً ما تحتفظ بما لا يعبأ له فكره ليحتفظ به.

هذا هو المسيح، أبعد أعماقنا وأرفع أعالينا، الذي يرافق الإنسان إلى الأبدية.

ألم تسمعوا به على مفارق الطرق في الهند، وفي أرض المجوس، وعلى رمال مصر؟

وهنا في بلادكم الشمالية قد تغنى شعراؤكم القدماء ببروميثيوس حامل النار، الذي تحققت فيه رغبات الإنسان، وتحطمت به قضبان القفص الذي قيّد رجاء الناس فأطلق وصار حراً؛ وبأورفيوس الذي تجسّد مع الصوت والقيثارة لينعش الروح في الحيوان والإنسان.

أولا تعرفون شيئاً عن قيصر الملك، وزوروستر النبي الفارسي، اللذين استيقظا من نوم الإنسان القديم ووقفا على فراش أحلامنا؟

إلا أنّنا نحن أنفسنا نصير مسحاء عندما نجتمع في الهيكل غير المنظور، في ألف سنة، حينئذ يخرج أحدنا متجسداً.

بيد أن آذاننا لا تتحول دائماً للسماع، ولا عيوننا للنظر.

قد وُلد يسوع الناصري ونشأ مثلنا، وكان أبوه وأمّه كوالدينا وكان هو إنساناً مثلنا.

ولكن المسيح، الكلمة، الذي كان في البدء، الروح التي

ترجو لنا أن نحيا حياة كاملة، كل هذا قد جاء إلى يسوع واتحد معه.

فالروح كانت يد الرب الشعرية، ويسوع كان قيثارة لها. الروح كانت مزموراً، ويسوع كان لحناً له.

ويسوع، رجل الناصرة، كان المضيف والممثل للمسيح، الذي مشى معنا في الشمس ودعانا أصدقاءه.

إن تلال الجليل وأوديته لم تسمع في تلك الأيام سوى صوته. وعلى رغم حداثتي في ذلك العهد كنت أسير في طريقي وأقتفي خطواته.

أجل، قد اقتفيت خطواته وسرت في طريقه لأسمع كلمات المسيح من شفتي يسوع الجليلي.

إنّكم تودون بلا شك أن تعلموا لماذا يدعوه فريق منا ابن الإنسان.

فهو نفسه قد رغب في أن نسميه بهذا الاسم، لأنّه عرف مجاعة الإنسان وعطشه؛ ورأى الإنسان يفتش عن ذاته العظمى.

إن ابن الإنسان هو المسيح الرؤوف الذي يريد أن يكون مع الجميع.

هو يسوع النذير الذي يرغب في قيادة جميع إخوته إلى المختار

الحبيب الذي مسحه الله بزيت قدسه، هو الكلمة الذي كان في البدء مع الله.

إن يسوع الجليلي مقيم في قلبي. وهو الإنسان المتسامي على الناس، والشاعر الذي يصنع الشعراء من جميعنا، بل هو الروح التي تقرع على أبواب أرواحنا لنستيقظ وننهض ونخرج لملاقاة الحقيقة العارية الواثقة بنفسها.

كاهن شاب في كفرناحوم
يسوع الساحر

كان ساحراً متلوياً معوّجاً، وعرافاً يضلل البسطاء بسحره وتعزيمه، وكان يشعوذ بكلمات أنبيائنا ومقادس أجدادنا.

وكان يطلب شهوده حتى من الأموات، ويتخذ سلطانه وأعوانه من القبور الصامته.

وكان يفتش عن نساء أورشليم وبنات المزارع بدهاء العناكب التي تفتش عن الذباب، وكان يصطادهنّ بفخاخه.

لأن النساء ضعيفات فارغات الرؤوس، وهنّ يتبعن الرجل الذي تطمئن إلى كلماته العذبة أهواؤهنّ الباقية. ولولا هؤلاء النساء، السقيمات العقول، والمأخوذات بروحه الشريرة، لكان اسمه قد انمحى من ذاكرة الإنسان.

ومن هم الرجال الذين تبعوه؟

كانوا من الطبقة المكدونة والمدوسة بالأقدام. ولم يكن يخطر لهم قطّ أن يثوروا على أسيادهم وهم على ما كانوا عليه من الجهل والخوف. ولكنه عندما وعدهم بالمراكز العالية في ملكوات سرابه استسلموا لأوهامه كما يستسلم الطين للخزّاف.

أوَلاً تعلمون أن العبد لا يرى غير السيادة في أحلامه،

والضعيف الخامل لا يرى نفسه إلا أسداً؟

فالجليلي كان مشعوذاً خداعاً، وقد صفح عن خطايا جميع الخطاة ليسمع التهليل والهتاف ((بأوصنا)) من أفواههم القذرة، وقد أطعم قلوب اليائسين والبؤساء ليكون له آذان كافية لسماع صوته وجيش يأتمر بأوامره.

وقد كسر السبت مع الذين يكسرونه ليكسب معاضدة الخارجين على الشريعة، وتكلم بالسوء على رؤساء كهنتنا ليلفت أنظار المجلس الأعلى إليه، ويزيد في شهرته عن طريق المعارضة.

طالما حرصت بأنّني أبغض ذلك الرجل. نعم أبغضه أكثر من بغضي للرومانيين الذي يحكمون بلادنا. حتى إن مجيئه كان من الناصرة، وهي القرية التي لعنها أنبياؤنا، فصارت مزبلة للأمم، ولا يمكن أن يخرج منه شيء صالح.

لاوي غني بجوار الناصرة
يسوع النجار الماهر

كان نجاراً ماهراً، فالأبواب التي صنعها لم يستطع لصّ أن يخلعها والنوافذ التي عملها كانت حاضرة أبداً لتنفتح للريح الشرقيّة والغربية.

كان يصنع الصناديق من خشب الأرز فتأتي صقيلة متينة، والمحاريث والسفافيد من السنديان فتجيء قوية سهلة الانقياد في يد الفلاح.

كان يحفر المقارئ (جمع مِقْرأ) لمجامعنا من خشب التوت الذهبيّ، وعلى جانبي الخشبتين اللتين يوضع عليهما الكتاب المقدس كان يضع جناحين منبسطين، وتحتهما رؤوس ثيران وحمام وغزلان ذات عيون كبيرة.

كل هذا كان يتحدى في صنعه طريقة الكلدانيين واليونان. ولكن كان في فنّه شيء لم يكن لا كلدانيًّا ولا يونانيّاً.

قد اشتغلت في بناء بيتي هذا أيدٍ كثيرة منذ ثلاثين سنة، لأني فتشت عن البنائين والنجارين في جميع قرى الجليل، وكانت لكل منهم مهارة البنّاء وفنّه، وكنت راضياً قانعاً بكلّ ما صنعوه لي.

ولكن، هلمّ وانظر هذين البابين وتلك النافذة التي صنعها يسوع الناصري، فهي بدقة صنعها وثباتها تهزأ بكلّ ما في بيتي.

أفلا ترى أن هذين البابين يختلفان عن جميع الأبواب التي في البيت؟ وهذه النوافذ المفتوحة للشرق، ألا تختلف عن بقية النوافذ؟

إن جميع أبوابي ونوافذي تستسلم لشريعة السنين، ما خلا هذه التي عملها هو، فهي وحدها ثابتة أمام عناصر الطبيعة.

تأمل هذه العوارض المتقاطعة، كيف وضع إحداها فوق الأخرى، وهذه المسامير كيف أنزلت من الوجه الواحد في العارضة فخرجت من الوجه الثاني وهنالك لويت بدقّة حتى لا تتزحزح من موضعها.

والعجيب الغريب في هذه القضية أن ذلك العامل الذي كان يستحقّ أجرة رجلين لم يقبض إلا أجرة واحد فقط، وذلك العامل نفسه هو في عقيدة البعض نبي في بني إسرائيل.

فلو عرفت في ذلك الحين أن هذا الشاب الحامل المنشار والفارة هو نبي لكنت طلبت إليه أن يتكلم عوضاً عن أن يشتغل، ولكنت دفعت له الأجرة مضاعفة على كلماته.

وحتى الساعة لا يزال عمال كثيرون يشتغلون في بيتي وحقولي، ولكن كيف أقدر أن أميز بين الرجل الذي يده على محراثه والرجل الذي يد الله على يده؟

نعم، كيف أستطيع أن أعرف يد الله؟

راعٍ في جنوب لبنان
مثل

رأيتـه لأول مـرة فـي آخـر الصيـف يمشــي علـى تلـك الطريــق مع ثلاثة رجـال مـن رفاقـه. وكـان الوقت عند المسـاء، فوقـف هنـالك يتأمل الطريق في آخر المرج.

أما أنا فكنت أنفخ في مزماري، وقطيعي يرعى حواليّ.

وعندما وقفت نهضت وسرت إليه ووقفت أمامه.

فسألني قائلاً: أين قبر أليشع؟ أليس قريباً من هذا المكان.

فأجبته: هو هناك يا سيدي، تحت تلك الرجمة. وما برح عابرو الطريق حتى اليوم يحمل كل منهم حجراً ويضعه في هذه التلة.

فشكرني وسار في طريقه ورفقاؤه يسيرون وراءه.

وبعد ثلاثة أيـام قـال لـي غملائيـل الـذي كـان راعيـاً مثلـي: إنّ الرجل الذي مرّ بك هو نبي في اليهودية. ولكنني لم أصدقـه، بيد أن ذكرى ذلك الرجل لم تفارق ذاكرتي. وعندما جاء الربيع مرّ يسوع بهذا المرج ثانية، وكان في هذه المرة وحده.

أما أنا فلم أكن أنفخ في مزماري في ذلك اليوم، لأنّني كنت قد أضعت خروفاً وكنت حزيناً تملأ غيوم الكآبة سماء قلبي.

وعندما رأيته مشيت ووقفت أمامه صامتاً، لأنــي أردت أن أتعزّى.

فنظر إليّ وقال: أنت لا تنفخ في مزمارك اليوم، فمن أين جاءت الكآبة في عينيك؟

فأجبته: قد ضاع خروف من خرافي، وقد فتشت عنه في كل مكان فلم أجده ولا أعلم ماذا أعمل.

فسكت هنيهة ثم نظر إليّ مبتسماً وقال: انتظرني هنا ريثما أجد لك خروفك. وسار في طريقه حتى اختفى بين التلال.

وبعد ساعة من الزمن رجع، وكان خروفي يمشي إلى جانبه، وفيما هو واقف أمامي كان الخروف ينظر إلى وجهه كما نظرت أنا.

فأقبلت على الخروف أضمه إلى صدري بفرح عظيم.

فوضع يده على كتفي وقال: إنّك منذ اليوم ستحبّ هذا الخروف أكثر من جميع الخراف في قطيعك، لأنّه كان ضالاً فوُجد.

ثم ضممت خروفي ثانية إلى صدري بفرح عظيم، وكان الخروف يدنو مني وأنا صامت لا أنبس ببنت شفة.

وعندما رفعت رأسي لأشكر يسوع رأيته يسير بعيداً عنّي فلم أجسر على أن أتبعه.

يوحنا المعمدان
لواحد من تلاميذه

إنّني لستُ صامتاً في هذا السجن المظلم في حين أن صوت يسوع يتعالى في ساحة الحرب. ولا يقدر أحد أن يلقي عليّ يداً أو يقيّد حريّتي طالما أنّه هو حر.

يقولون لي إن الأفاعي تنساب حول حقوية، ولكنني أجيب أن الأفاعي ستوقظ قوته ليسحقها بقدميه.

إنّني لست سوى رعد في برقه. ومع أنّني تكلمت أولاً فإن الكلمة التي نطقتُ بها هي كلمته، والغاية التي سعيتُ إليها هي غايته.

قد قبضوا عليّ بدون إنذار. ولعلهم يلقون أيديهم عليه أيضاً، ولكنهم لن يفعلوا ذلك قبل أن يتلفظ بكل أقواله. وسيغلبهم.

ستمرّ عربته فوقهم، وستدوسهم حوافر خيوله، وسيكون منتصراً.

سيخرجون إليه بسيوف وحراب، ولكنه سيجابههم بقوّة الروح.

سيجري دمه على الأرض، ولكن قاتليه أنفسهم سيعرفون جراحه وآلامها، وسيتعمدون بدموعهم حتى يتطهروا من خطاياهم.

إن جيوشهم ستهجم على مدنه بالمجانق الحديدية، ولكنهم

سيغرقون في طريقهم في نهر الأردن.

أما أسواره وأبراجه فستزداد ارتفاعاً، ودروع محاربيه سيتضاعف بريقها في أشعة الشمس.

يقولون إنّني متواطئ معه لنحضّ الشعب على النهوض للثورة ضدّ مملكة اليهودية.

وها أنا أجيب، ويا ليت لي نيراناً أصوغ منها كلماتي: إذا كانوا يحسبون بؤرة الإثم هذه مملكة، إذاً فلتخرب ولتصر إلى لا شيء، وليحل بها ما حل بصادوم وعمورة، ولينسَ الرب هذا الجنس، ولتتحول هذه الأرض إلى رماد.

نعم أنا حليف يسوع الناصري وراء هذه الجدران الغليظة في سجني، وهو سيقود جيوشي بما فيها من الفرسان والمشاة. وأنا نفسي، وإن كنت قائداً في معسكر الرب، فإنّني لست أهلاً لأن أحلّ سيور حذائه.

اذهبوا إليه، وأعيدوا كلماتي على مسمعيه، واطلبوا إليه باسمي أن يعزّيكم ويباركم.

إنّني لن أقيم طويلاً في هذا المكان، لأنّني في كل ليلة بين اليقظة واليقظة أشعر بأقدام بطيئة تدوس على هذا الجسد بخطوات متناسقة، وعندما أصغي جيداً أسمع قطرات المطر تتساقط على جسدي.

اذهبوا إلى يسوع وقولوا له: إن يوحنا الكدروني الذي تمتلئ نفسه من الأشباح ثم يفرغها ثانية، يصلي من أجلك، في حين أن حفار القبور يقف قريباً منه، والسيّاف يمدّ يده لقبض أجرته.

يوسف الذي من الرامة
المطالب الأولية ليسوع

تودون أن تعرفوا المطلب الأول ليسوع وها أنا بفرح أخبركم، ولكن ما من رجل يستطيع أن يلامس بأصابعه حياة الكرمة المباركة، أو ينظر بعينيه العصارة المقدسة التي تغذي أغصانها.

ومع أنّني تذوّقت عنب هذه الكرمة، وشربت الخمرة الجديدة من المعصرة، فأنا عاجز عن أن أخبركم بكل شيء.

ولكنني أقدر أن أحدثكم بما أعرفه عنه:

إن معلمنا وحبيبنا لم يعش سوى ثلاثة فصول من فصول الأنبياء، وأنا أعني ربيع إنشاده، وصيف وجده، وخريف آلامه. وكل فصل من هذه الفصول كان عبارة عن ألف سنة.

فربيع إنشاده قضاه مترنّماً في الجليل. فهنالك كان يجمع محبيه حواليه. وعلى شواطئ البحيرة الخضراء تكلّم أوّلاً عن الأب، وعن العتق والحريّة.

على بحيرة الجليل خسرنا أنفسنا لنجد طريقنا إلى الأب، أواه؛ ما أتفه ما خسرنا بالنسبة إلى ما ربحنا!

هنالك ترنم الملائكة في آذاننا وأمرونا أن نهجر الأرض المجدبة لنحظى بفردوس رغبات القلب.

هنـــالك كـــان يتكلـــم عـــن الحقـــول والمراعـــي الخضـــراء وعن منحدرات لبنان حيث تختبئ الزنابق الخضراء لكي لا تفطن لها القوافل المارّة في غبار الوادي.

وهنـالك كـــان يخاطبنـــا عـــن العوســـج الـــبريّ الـــذي يبتســـم في الشمس ويقرب بخوره للريح المجتازة به.

وكـان يقول: إن الزنـابق والعوسـج تعيـش يومـاً واحـداً، ولكـن ذلك اليوم هو الأبدية التي تُقضى بالحرية.

وفي أحد الأمساء، وقد جلسنا إلى حافة جدول صغير، قال لنا: انظروا إلى الجدول واصغوا إلى موسيقاه. فهو ينشد البحر أبداً، ومع أنّه ينشد البحر أبداً فهو يترنم بأسراره من الظهيرة إلى الظهيرة.

أودّ لو أنّكم تنشدون الأب كما ينشد هذا الجدول بحره.

ثم جاء صيف وَجدهِ، وبلغت إلينـا حـرارة محبتـه، فحصـر كـل كلامه بالآخرين ـ بالجار، وعابر السبيل، والغريب، ورفقاء الصبوة.

فخاطبنـا عـن السـائح المسـافر مـن الشـرق إلـى مصـر، والفـلاح الراجع بثيرانه إلى بيته عند المساء، وضيف الساعة الذي يقوده مَلَسُ الظلام إلى بابنا.

وكـان يقـول: إن جـاركم هـو ذاتكـم غيـر المعروفـة، تتجسـد أمامكم لتصير منظورة. فميـاهكم الهادئـة سـتعكس لكـم وجهـه، وإذا تأملتم بها جيداً فأنتم ولا شكّ ستنظرون وجوهكم.

وإذا أصغيتم في سكينة الليل فإنّكم ستسمعونه متكلّماً وسيكون خفقان قلوبكم في كلماته.

فاعملوا به نفس ما تودون أن يعمله هو بكم.

هذه هي شريعتي، وأنا أقولها لكم ولأولادكم، وهم يقولونها لأولادهم حتى تنفق كنوز الزمان وتضمحلّ خزائن الأجيال.

وفي يوم ثانٍ قال لنا: لا تكن وحدك في حياتك لأنّك تعيش في أعمال الآخرين؛ وهم وإن جهلوا يعيشون معك سحابة أيامك.

إنهم لا يقترفون جريمة من غير أن تكون يدك مع أيديهم.

وهم لا يسقطون من غير أن تسقط معهم، ولا ينهضون إلا وأنت تنهض معهم.

إن طريقهم إلى المقدس هي طريقك، وإذا نشزوا إلى قفر السقوط فأنت أيضاً ناشز معهم.

أنت وقريبك بذرتان مزروعتان في حقل واحد.

وأنتما تنموان معاً وتتموجان معاً أمام الريح. ولكن لا يستطيع أحدكما أن يدعي ملكية الحقل. لأن البذرة السائرة إلى النماء لا تقدر أن تدعي حتى ولا ملكية وجدها وافتتانها.

اليوم أنا معكم، ولكنني غداً أمضي إلى الغرب، غير أنّني قبل أن أمضي أقول لكم: إن جاركم هو ذاتكم غير المعروفة،

تتجسد أمامكم لتصير منظورة. فانشدوه بمحبة لتعرفوا أنفسكم؛ لأنّكم بهذه المعرفة فقط تستطيعون أن تكونوا إخوة لي.

ثم جاء خريف آلامه.

فخاطبنا عن الحرية، كما كان يخاطبنا في الجليل في ربيع إنشاده، ولكن كلماته في هذه المرة كانت تنشد أعمق أعماق فهمنا.

فكان يتكلم عن الأوراق التي لا تنشد أناشيدها إلا إذا حركتها الرياح، وعن الإنسان مشبهاً إياه بكأسٍ يملأها ملاك الخدمة لتبرد عطش ملاك آخر. ومع ذلك فسواء كانت هذه الكأس ممتلئة أو فارغة فإنّها تظلّ لامعة ببلّورها على مائدة العليّ القدير.

ومن أقواله: أنتم الكأس وأنتم الخمرة. فاشربوا من خمرة أنفسكم حتى الثمالة، أو تذكروني فتروى غلة عطشكم.

وفي طريقنا إلى الجنوب قال لنا: إن أورشليم، الجالسة بكبرياء على قنّة مجدها، ستنحدر إلى أعماق جهنم الوادي المظلم وفي وسط خرابها سأقف وحيداً.

وسيتحول الهيكل إلى غبار ورماد، وحول أروقته ستسمعون صراخ الأرامل والأيتام، والناس في عجلتهم للهرب سيتعامون عن رؤية وجوه إخوتهم، لأن الخوف سيشملهم جميعاً.

ولكن حتى في ذلك الوقت، إذا اجتمع اثنان منكم وتلفظا

باسمي ونظرا إلى الغرب، فإنكم تبصرونني فتتراجع أصداء كلماتي هذه إلى آذانكم.

وعندما وصلنا إلى تلة بيت عينا قال: لنمض إلى أورشليم. فإن المدينة تنتظرنا. سأدخل البوابة راكباً على جحش، وسأخاطب الجموع.

إن الراغبين في تقييدي كثيرون، وأكثر منهم النافخون في النار ليحرقوني، ولكنكم بموتي ستجدون حياة وستكونون أحراراً.

إنهم يطلبون نسمة الحياة الحائمة بين القلب والفكر كما يحوم الخطاف بين الحقل وعشه. ولكن نسمة حياتي قد هربت منهم ولذلك لن يغلبوني.

إن الأسوار التي بناها الأب حولي لن تسقط، والأرض التي قدسها في كياني لن تتنجس.

فإذا جاء الفجر فإن الشمس ستتوج رأسي فاجتمع بكم لمجابهة النهار. وذلك النهار سيكون طويلاً ولن يرى العالم مساءه.

يقول الكتبة والفريسيون إن الأرض متعطشة لدمي. ويسرني أن أبرد عطش الأرض بدمي. ولكن نقط هذا الدم ستنهض بأغصان السنديان والقيقب، وستحمل الريح الشرقيّة بلّوطها إلى جميع البلدان.

ثم قال أيضاً: إن اليهودية تريد ملكاً لتهجم على جيوش رومة.

إنّني لا أريد أن أكون ملكاً لها، لأن تيجان صهيون قد صنعت للجباه الصغيرة؛ وخاتم سليمان صغير على هذه الأصبع. تأملوا يدي؛ ألا ترون أنها أقوى من أن تحمل صولجاناً، وأقدر من أن تمتشق حساماً؟

إلا إنّني لا أريد أن أثير السوري ضدّ الروماني. ولكن أنتم بكلماتي ستوقظون المدينة الغافلة، فتخاطبها روحي في فجرها الثاني.

إن كلماتي ستؤلف جيشاً لا تراه العيون، حافلاً بالخيول والعربات؛ وبغير فأس ولا حربة سأغلب كهنة أورشليم، وانتصر على القياصرة.

إنّني لا أجلس على عرش قد جلس عليه العبيد ليحكموا غيرهم من العبيد. كلاّ؛ ولا أريد أن أثور على أبناء إيطاليا.

ولكنني سأكون عاصفة في سمائهم، وأنشودة في نفسهم.

وسيذكرني الجميع. سيدعوني الجميع يسوع الممسوح.

جميع هذه الأقوال قالها يسوع خارج أسوار أورشليم قبل أن دخل المدينة.

وقد انطبعت كلماته على صفحات القلوب كأنّما حُفرت بالأزاميل.

نثائيل

لم يكن يسوع وديعاً

يقولون إنّ يسوع الناصري كان وضيعاً وديعاً.

ويقولون أنّه كان رجلاً بارّاً عادلاً، ولكنه كان ضعيفاً، وإنّه كثيراً ما كان يتحيّر وينذهل أمام الأقوياء والأشدّاء، وإنّه عندما كان يقف أمام ذوي السلطان لم يكن سوى حمل أمام سباع.

أما أما فأقول: إن يسوع كان له سلطان فوق جميع الناس، وإنّه عرف قوته وأعلنها بين تلال الجليل، وفي مدن اليهودية وفينيقية.

فأيّ رجل ضعيف مستسلم يقول: أنا الحياة، وأنا طريق الحياة؟ وأيّ رجل وديع وحقير يجرؤ أن يقول: أنا في الله أبينا وإلهنا الأب فيّ؟

وأيّ رجل لا يعرف قوته يقول: إن من لا يؤمن بي لا يؤمن بهذه الحياة ولا بالحياة الأبدية؟

وأيّ رجل لا يثق بالغد ويقدر أن يصرح بمثل هذا الإعلان: إن عالمكم سيزول ويتحول إلى رماد تذريه الريح قبل أن تزول كلمة من كلماتي؟

أم هل شكّ في قوته عندما قال للذين حملوا الزانية إليه ليجربوه: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر؟

وهل خاف ذوي السلطان عندما طرد الصيارفة من ساحة

الهيكل مع أنهم كانوا مفوّضين من الكهنة؟

وهل كان مقصوص الجناحين عندما صرخ قائلاً: إن مملكتي فوق ممالككم الأرضية؟

أم هل كان يختبئ بالألفاظ عندما قال المرة بعد المرة: انقضوا هذا الهيكل وأنا أعيد بناءه بثلاثة أيام؟

وهل يستطيع الجبان أن يهزّ يمينه في وجه ذوي السلطان فيدعوهم: كذبة أدنياء وقذرين منجسين؟

إن رجلاً كانت له الجرأة على قول مثل هذا لأسياد اليهودية لا يمكن أن يكون وضيعاً وديعاً. إلا أن النسر لا يبني عشّه في الصفصاف الباكي، والسبع لا يفتش عن عرينه بين الأدغال.

قد سئمتُ والتهبت أحشائي من قول ضعفاء القلوب إن يسوع كان وضيعاً وديعاً ليبرروا ضعتهم وصغارة قلوبهم، وخصوصاً عندما أسمع المدوسين بالأقدام ينشدون تعزيتهم بوضع المعلم في صفوفهم.

نعم، قد ضجر قلبي من أمثال هؤلاء. فأنا أُبشر بصياد قدير وروح جبلية لا تعرف الغلبة.

سابا الأنطاكية
يصف شاوول الطرسوسي

سمعت في هذا اليوم شاوول الطرسوسي يبشر بالمسيح لليهود في هذه المدينة.

فهو يسمي نفسه بولس ألان، رسول الأمم.

قد عرفت هذا الرجل في حداثتي، وكان في تلك الأيام يضطهد أصدقاء الناصري. أنا ما زلت أذكر جيداً مسرّته ورضاه إذ كان يتأمل أصحابه وهم يرجمون الشاب النوراني استفانوس.

إن بولس هذا رجل عجيب غريب. إن نفسه ليست بنفس الرجل الحر.

فهو كثيراً ما يبدو كالحيوان في الغابة، طارده الصيادون وجرحوه فجاء ينشد كهفاً يخفي ألمه عن العالم.

وهو لا يتكلم عن يسوع ولا يعيد أقواله، بل يعظ عن ماسيا الذي انبات عنه الأنبياء.

ومع أنّه من علماء اليهود فهو يخاطب أصحابه اليهود باليونانيّة ويونانيته عرجاء، وهو لا يحسن اختيار ألفاظه لمواضعها.

بيد أنّه رجل ذو قوة خفية، والناس يؤيدونه بإقبالهم على سماعه. وكثيراً ما يؤكّد لهم أموراً هو نفسه لا يثق بها.

فنحن الذين عرفنا يسوع وسمعنا خطبه نقول إنّه علّم الإنسان كيف يحطم قيود عبوديته ليتحرر من سجون أمسه.

ولكن بولس هذا يصنع قيوداً جديدة لرجل الغد. فهو يضرب بمطرقته على السندان باسم رجل هو نفسه لا يعرفه.

فالناصري يرغب إلينا أن نعيش الساعة بوجد وشوق.

أما رجل طرسوس هذا فإنّه يأمرنا بالمحافظة على الشرائع المكتوبة في الكتب القديمة.

قد منح يسوع من نسمة روحه للميت الفاقد النسمة. وفي وحدة لياليّ أؤمن وأفهم.

وعندما كان يجلس إلى المائدة يقص على الجالسين معه قصصاً تزيد في بهجتهم وسعادتهم ولذّة طعامهم وشرابهم.

ولكن بولس يحدّد لنا رغيفنا وكأسنا.

فاسمحوا لي الآن أن أدير عينيّ إلى الطريق الأخرى.

سالومة إلى صديقة لها
رغبة لم تتحقق

كان كالحور اللامع في الشمس، وكالبحيرة بين التلال الوحيدة مشرقاً في الشمس، وكان كالثلج على رؤوس الجبال أبيض أبيض في الشمس.

نعم، كان مثل هذه جميعها وقد أحببته. بيد أنّني كنت أخاف أن أجلس في حضرته.

وكنت أودّ أن أقول له: قد قتلت صديقك في ساعة هوىً في نفسي، فهل تغفر لي خطيئتي وأنت الرحوم الصفوح؟ أفلا تحلّ قيود شبابي من عماوة عمل لأمشي حرة طليقة في نورك العظيم؟

إنّني واثقة بأنّه كان يصفح عن رقصتي للحصول على رأس صديقه البارّ. إنّني واثقة بأنّه كان قد رأى فيّ موضوعاً من مواضيع تعاليمه، لأنّه لم يكن في العالم من وادي مجاعة لم يعبره، ولا صحراء عطش لم يقطعها.

بلى، قد كان كالحور الجميل، وكالبحيرات بين التلال، وكالثلج على الجبال. وكنت أتوق لتبريد عطش شفتيّ في ثنايا ثوبه.

بيد أنّه كان بعيداً عنّي، وأنا كنت خجولة. وكانت أمّي تمنعني عن الذهاب إليه كلما دعاني حنيني إلى السير وراءه.

وكلما مرّ بنا كان قلبي يذوب من جماله، ولكن أمي كانت تقطّب حاجبيها احتقاراً وتأمرني بالتحوّل عن النافذة إلى غرفتي، وكانت تصرخ بأعلى صوتها قائلة: ومن يكون هذا سوى أكول جراد آخر من الصحراء.!

إن هو إلا مستهزئ خائن، ومشاغب يتعيش بإثارة نيران العصيان، لسلب صولجاننا وتاجنا؛ وحمل الثعالب وبنات آوى من بلاده اللعينة لتعوي في قصورنا وتجلس على عرشنا. اذهبي واحجبي وجهك من هذا النهار، وانتظري يوم يسقط رأسه ولكن ليس على طبقك.

كل هذا قالته والدتي ولكن قلبي لم يحفظ كلامها، فقد أحببته سرّاً وكان حبّه يمنطق نومي باللهيب.

قد مضى اليوم، وقد ذهب بذهابه شيء عظيم كان فيّ، ومن يدري، فقد يكون شبابي قد ذهب مني لأنّه لم يطق أن يقيم هنا بعد أن رأى إله الشباب قتيلاً.

راحيل إحدى التلميذات
هل كان يسوع رجلاً أم فكراً؟

كثيراً ما أفكر منذهلة فيما إذا كان يسوع رجلاً ذا لحم ودمٍ نظيرنا ، أو فكراً بغير جسد ، في العقل، أو فكرة تزور خيال الإنسان.

وكثيراً ما يخطر لي أنّه لم يكن سوى حلم حلمه رجال ونساء لا عديد لهم، وقد رآه جميعهم في نوم أعمق من النوم، وفجرٍ أهدأ من كل فجر.

ويظهر أنّنا إذ كنا نقصّ هذا الحلم بعضنا لبعض شرعنا نتخيلة حقيقة وقعت بالفعل، وإذ منحناه جسداً من خيالنا وصوتاً من حنيننا جعلناه أخيراً جوهراً حقيقياً لمادة وجودنا.

ولكن بالحقيقة إنّه لم يكن حلماً. فقد عرفناه ثلاث سنين ورأيناه رؤية العين في نور الظهيرة اللامع.

قد لمسنا يديه وتبعناه من مكان إلى مكان. قد سمعنا خطبه ورأينا أعماله. وهل يخطر لكم أنّنا كنّا فكراً ينشد غيره من الأفكار أو حلماً هائماً في منطقة الأحلام؟

إن الحوادث العظيمة تظهر دائماً غريبة عن حياتنا اليوميّة وإن كانت طبيعتها مغروسة في طبيعتنا ، وهي وإن أقامت فجأة

في مجيئها وفجأة في مرورها بنا فإن جورها الحقيقي يرافق السنين والأجيال.

ويسوع الناصري هو نفسه الحادثة العظمى. فإن ذلك الرجل الذي نعرف أباه وأمّه وإخوته كان نفسه أعجوبة حدثت في اليهودية. بلى، وكل عجائبه إذا وضعت عند قدميه لا تعلو إلى مساواة عقبيه.

وجميع الأنهار في جميع السنين لا تقدر أن تذهب بذكراه من قلوبنا.

فقد كان جيلاً محترقاً في الليل ومع ذلك كان حرارة لطيفة وراء التلال وكان عاصفة في الجو، ومع ذلك كان يتحرك بلطف في ضباب الفجر.

كان يسوع سيلاً جارفاً منحدراً من الأعالي إلى السهول ليهدم كل شيء في طريقه. وكان في الوقت نفسه لطيفاً كابتسامة الأطفال.

في كل سنة أنتظر زيارة الربيع لهذا الوادي، وفي كل سنة أنتظر الزنابق وبخور مريم، ولكن نفسي تكتئب في أعماقي كل سنة، لأنّني طالما تقت لأفرح مع الربيع فلم أقدر.

ولكن عندما جاء يسوع إلى فصولي كان بالحقيقة ربيعاً لأحلامي وقد تحققت فيه مواعيد جميع السنين المقبلة. فقد ملأ قلبي فرحاً، فنموت كالبنفسج خجولة في نور مجيئه.

واليوم لا تستطيع تقلبات فصول العالم التي لم تصر لنا بعدُ أن تمحو جماله من عالمنا هذا.

إلا أن يسوع لم يكن حلماً ولا فكرة تمخضت بها أحلام الشعراء، بل كان رجلاً مثلك ومثلي بالبصر والسمع واللمس، وفي جميع ما تبقّى كان يختلف كل الاختلاف عن جميعنا.

فقد كان رجل أفراح، وعن طريق الفرح تعرّف إلى كآبة جميع الناس، ومن أعالي سطوح كآبته رأى فرح جميع الناس.

إن الرؤى التي رآها لم نرَها نحن، والأصوات التي سمعها لم نسمعها، وكان يتكلم مخاطباً جموعاً غير منظورة، بل كثيراً ما تكلم بواسطتنا لأقوام لم يولدوا بعد.

وكان يسوع وحده في أكثر الأحيان، فقد كان بيننا ولكنه لم يكن واحداً منا. وكان على وجه الأرض، ولكنه كان من السماء. ونحن لا نقدر أن نرى أرض وحدته إلا في وحدتنا.

قد أحبّنا حبّاً ممتلئاً بالعطف والحنان. وكان قلبه معصرة. وأنت وأنا كان في منالنا أن نتقدم إليه بكؤوسنا فنشرب حتى نرتوي.

إن أمراً واحداً لم أكن أفهمه في يسوع، وهو أنّه كان كثير المجون مع سامعيه، فهو يخبرهم ملحةً ويلعب بالألفاظ، ثم يضحك من أعماق قلبه حتى في الأوقات التي كانت ترتسم فيها الكآبة

على عينيه وتمتزج بدقائق صوته كل هذا لم أفهمه في ذلك الوقت ولكنني أفهمه الآن.

كثيراً ما أفكر في الأرض فأتمثلها امرأة حبلى ببكرها. وعندما ولد يسوع كان ابنها البكر. وعندما مات كان أول رجل يموت.

لأنّه، ألم يظهر لك أن الأرض كانت صامتة في تلك الجمعة المظلمة، والسماوات كانت في حرب شديدة ضدّ السماوات؟

بل، ألم تشعر عندما اختفى وجهه عن أبصارنا بأنّنا لم نكن سوى تذكارات هائمة في الضباب؟

كلاوبا البتروني
الشريعة والأنبياء

عندما تكلم يسوع صمت العالم كله ليصغي. إن كلماته لم تكن لآذاننا بل بالأحرى للعناصر التي صنع الله منها هذه الأرض.

فقد خاطب البحر، الأمّ المتسعة الصدر التي ولدتنا. وخاطب الجبل، أخانا الأكبر الذي قنّته وعدٌ ورجاء.

وخاطب الملائكة الذين وراء البحر والجبل، الذين استودعناهم أحلامنا قبل أن جفّ الطين الذي فينا من أشعة الشمس.

ولا يزال خطابه هاجعاً في صدرنا كأغنية الحب نصف المنسية، وفي بعض المرات يخترق طريقه إلى ذاكرتنا.

كان خطابه بسيطاً فرحاً، وكانت رنّة صوته كالماء العذب في أرض ناشفة.

وقد رفعه يده مرة نحو السماء فبدت أصابعه كأغصان الجميزة وقال بصوت عظيم: قد خاطبكم أنبياء القدماء، وآذانكم ممتلئة من خطبهم، أما أنا فأقول لكم: افرغوا آذانكم مما سمعتم.

وهذه الكلمات التي قالها يسوع: أما أنا فأقول لكم... لم يتلفظ بها رجل من قومنا، ولا من العالم أجمع، بل حملها إلينا جوق من الساروفيم في مروره بسماء اليهودية.

وكان يقتطف أقوال الشريعة والأنبياء مثنى وثلاثاً ورباعاً ثم يضيف إليها في كل مرة قائلاً: أما أنا فأقول لكم.

يا لها من كلمات ناريّة، يا لها من أمواج بحر لم تعرفها شواطئ أفكارنا، أما أنا فأقول لكم! يا لها من كواكب لامعة تنشد ظلمة النفس، ونفوس مستيقظة تنتظر جلال الفجر!

إن من يودّ أن يتكلم عن خطاب يسوع يجب أن يكون له خطابه أو صدى خطابه، أما أنا فليس لي خطابه ولا صداه، فأرجو من فضلكم عذراً عن الشروع في قصة لا أقدر أن أكملها. ولكن النهاية ليست على شفتيّ بعدُ، فإنّه ما زالت أغنية حبّ في الريح.

نعمان الغدايني
موت استفانوس

قد تفرق تلاميذه، لأنّه وصّى لهم بالألم قبل أن سيق إلى الموت. وأعداؤهم يصطادونهم صيد الغزلان وثعالب الحقول، ولا تزال جعبة الصياد ممتلئة بالسهام.

ولكن عندما يقبض العدو عليهم ويسوقهم إلى الموت يفرحون وتشرق وجوههم كوجه العروس في وليمة العرس. فقد ترك لهم أيضاً وصية الفرح.

كان لي صديق من أهل الشمال اسمه استفانوس، وبما أنّه نادى بيسوع ابن الإنسان قادوه إلى ساحة المدينة ورجموه.

وعندما سقط استفانوس على الأرض بسط ذراعيه كأنّه يود أن يموت كما مات معلّمه. وقد انبسطت ذراعاه كجناحين على أهبة الطيران. وقبل أن يضمحلّ آخر بريق في عينينه رأيت بأم عيني ابتسامة قدسية ترتسم على شفتيه. وما أشبه تلك الابتسامة بالنسيم الذي يأتي قبل نهاية الشتاء واعداً ومبشراً بقدوم الربيع ! كيف أستطيع أن أصفها؟

يلوح لي أن استفانوس كان يودّ أن يقول: إذا كان لي أن أمضي إلى عالم آخر، وهناك قبض عليّ قوم آخرون وساقوني إلى ساحة مدينتهم ليرجموني، فإنّني حتى في ذلك العالم سأعلنه

للناس من أجل الحق الذي كان فيه، ومن أجل الحق نفسه الذي هو فيّ الآن.

وقد لاحظت بين المتفرّجين على رجم استفانوس رجلاً واقفاً أمامه ينظر بملء الفرح إلى الحجارة المتساقطة عليه.

وكان اسم ذلك الرجل شاوول الطرسوسي، وهو الذي سلم استفانوس للكهنة والرومانيين والجموع ليرجموه.

كان شاوول أصلع الرأس قصير القامة، وكان معوّج الكتفين ولا تناسب في قوامه، ولم أكن أحبه.

وقد أخبروني أنّه يبشّر اليوم بيسوع من على السطوح، ولكن هذا الكلام صعب التصديق.

ولكن القبر لا يستطيع أن يقف في طريق سير يسوع إلى معسكر أعدائه ليروض شراستهم ويأسر أعظمهم.

بيد أنّني لا أحب ذلك الرجل الطرسوسي، على رغم ما عرفته أنّه بعد موت استفانوس قد خمدت حدة شراسته وغلب على أمره في طريقه إلى دمشق. ولكن رأسه أكبر من قلبه. فهو لا يقدر أن يكون تلميذاً أميناً ومع كل هذا فقد أكون مخطئاً في حكمي، لأنّني في الغالب مخطئ في أحكامي.

توما يصف جده وشكوكه

قال لي جدي مرة، وكان متشرّعاً: لنحتفظ بالحقّ عندما يظهر الحقّ لنا.

وعندما دعاني يسوع لبّيت دعوته، لأن أمره كان أقوى من إرادتي ولكنني لم أنسَ نصيحةَ جدي، رحمه الله.

وعندما كان يخاطبنا فيتحرك غيري من السامعين كأغصان الأشجار المتمايلة أمام هبوب الرياح، كنت أصغي إليه من غير أن أتحرك ولكنني على رغم ذلك أحببته.

قد تركنا منذ ثلاث سنوات جماعة متفرقة تترنم باسمه، وتشهد له في جميع الأمم.

وقد دُعيت في ذلك الوقت بتوما المشكّك، لأن خيال جدّي كان ألزم لي من ظلي، وكنت ألتمس إظهار الحقيقة لألمسها بيدي أبداً.

في ذلك العهد المظلم بالشك كنت أضع يدي في جرحي لأرى الدماء تنزف منه قبل أن أصدّق ما بي من الألم.

ولكنني قد عرفت الآن أن الرجل الذي يحبّ بقلبه ويحتفظ بالشكوك في فكره، هو عبد محكوم عليه بالتجذيف في سفينة مظلمة، ينام أمام مجاذيفه ويحلم بحريته حتى توقظه سياط سيّده.

فأنا كنت مثل هذا العبد، وقد حلمت بالحرية، ولكن نوم جدّي كان يثقل أجفاني. وقد احتاج جسدي إلى سياط يومي.

إنّني حتى في حضرة الناصري كنت أغمض عينيّ لأرى يديّ مربوطتين إلى المجذاف.

الشكّ ألمٌ أنستهُ وحدتهُ أنّهُ والإيمان توأمان.

الشكّ فرخ من الطير ضالّ وشقي، ومع أن أمه التي ولدته ستجده وضتمه إلى صدرها، فإنّه يهرب منها حذراً خائفاً.

ولن يعرف الشكّ سبيله إلى الحقّ حتى تشفى جراحه وتعود صحته.

فأنا شككت في يسوع حتى أظهر لي ذاته، ووضعت يدي في جراحه، حينئذ آمنت بالحقيقة، وبعد ذلك تحررت من أمسي ومن جميع شكوك الأمس التي ورثتها عن جدودي.

فقد دفن الميت فيّ موتاه، والحيّ فيّ سيعيش للملك الممسوح، ذلك الذي دُعي ابن الإنسان.

قد أخبروني في الأمس أنّه يجب أن أسير مبشراً باسمه بين أبناء فارس والهند.

إنّني ماضٍ إلى عملي. ومن هذا اليوم إلى آخر أيامي، في الفجر وفي المساء، سأرى ربي قائماً بجلال وسأسمعه متكلماً.

المقدم المنطقي
يسوع الخارجي

تطلبون إليّ أن أتكلم عن يسوع الناصريّ، ولديّ عنه حديث مستفيض، ولكن لم يأت الوقت بعد، ولكن مهما قلت عنه الآن فهو الحقّ بعينه. لأنّ كل قول لا قيمة له ما لم يوضح الحقيقة.

إنّه رجل مختلٌ، يثور على النظام، ومتسوّل يقاوم المقتنيات، وسكّير لا يفرح إلاّ مع المحتالين والمرذولين.

لم يكن ابن الولاية الفخور، ولا ابن الإمبراطورية المتمتّع بحمايتها كسائر المواطنين النافعين، ولذلك كان يحتقر الولاية والإمبراطورية.

وكان يعيش حرّاً لا يعرف الواجب كطيور الهواء، ولذلك أنزله الصيادون إلى الأرض بسهامهم.

ما من رجل يدك قباب الأمس وينجو من حجارتها المتساقطة.

وما من رجل يفتح أبواب طوفان أسلافه من غير أن يختنق.

هي الشريعة. وبما أن ذلك الناصري كسر الشريعة صار هو وأتباعه البلداء إلى لا شيء.

وقد عاش في العالم كثيرون مثله من الرجال الذين أرادوا أن يغيروا مجرى حياتنا.

ولكنهم هم أنفسهم تغيروا ، وكانوا خاسرين.

توجد دالية لا عنب فيها تنمو عند أسوار المدينة ، وهي تمتدّ وتعرّش على حجارة السور ، فإذا قالت هذه الدالية في قلبها : إنّني سأخرب هذه الجدران بقوّتي وثقل أغصاني ، فماذا تقول لها بقية النباتات؟ إنها ولا شكّ تضحك من جنونها.

لأجل هذا تراني يا سيدي مضطراً إلى الضحك من هذا الرجل ومن تلاميذه المخدوعين به.

إحدى المريميات
كآبة وابتسامة

كان رأسه مرتفعاً أبداً ، ونور الربّ في عينيه.

وكان في الغالب كئيباً ، ولكن كآبته كانت بلسماً لجراح الحزانى والمستوحشين.

وعندما كان يبتسم كانت ابتسامته كمجاعة المشتاقين إلى غير المعروف، بل كانت كغبار الكواكب المتساقط على أجفان الأولاد ، وكقطعة الخبز في الحلق.

كان كئيباً ، ولكن كآبته كانت من النوع الذي ينهض إلى الشفتين ويتحول إلى ابتسامة.

فقد كانت كقناع ذهبي في الحرج عند دنوّ الخريف. وفي بعض المرّات كانت تبدو لنا كأشعّة القمر على شواطئ البحيرة.

فكان يبتسم كأنّ شفتية تودّان الغناء في وليمة عرس.

بيد أنّه كان كئيباً بكآبة ذي الجناحين الذي لا يريد أن يحلّق فوق رفيقه.

رومانوس الشاعر اليوناني

يسوع الشاعر

كان يسوع شاعراً. وكان يرى لعيوننا ويسمع لآذاننا، وكلماتنا الصامتة كانت على شفتيه، وأصابعه كانت تلامس ما لم نقدر نحن أن نحسّ به.

وكانت تطير من قلبه عصافير مغرّدة لا عديد لها بعضها إلى الشمال وبعضها إلى الجنوب، وكانت الأزهار اللطيفة في جوانب التلال تسدّد خطواته نحو السماوات.

كثيراً ما رأيته ينحني ليلامس أوراق الأعشاب، وفي قلبي كنت أسمعه يخاطبها قائلاً: أيتها المخلوقات الصغيرة الخضراء، أنت ستكونين معي في ملكوتي كما سيكون معي سنديان بيسان وأرز لبنان.

وكان يحبّ كل ما هو جميل في الوجود، الوجوه الخجولة في الأولاد، والمر واللبان من الجنوب.

قد أحبّ رمانة أو كأساً من الخمر تقرّب إليه بمودة، ولم يهمّه أجاءت من غريب في الفندق أو من مضيف غني.

وكان يحبّ أزهار اللوز. وقد رأيته مرة يجمعها بيديه ويغطي وجهه بأوراقها كأنّه يودّ أن يعانق بمحبته كلّ أشجار العالم. قد

عرف البحر والسماوات، وتكلم عن الدرر التي لم تتخذ نورها من هذا النور، والكواكب القائمة فوق ليلنا.

وعرف الجبال كما تعرفها النسور، والأودية كما تعرفها السواقي والجداول، وكان في صمته صحراء، وفي كلامه جنّة غنّاء.

نعم كان يسوع شاعراً قد أقام قلبه في مظلة تسمو على أعلى أعالينا، ومع أن ترانيمه أنشدت لآذاننا فقد أنشدت أيضاً لآذان أخرى، وسمعها الناس في بلاد أخرى حيث الحياة كلها شباب دائم والزمان كله فجر مقيم.

قد حسبت نفسي شاعراً فيما مضى، ولكنني عندما وقفت أمامه في بيت عنيا عرفت للحال ما مقام الضارب على آلة ذات وتر واحد أمام الذي يأمر جميع الآلات وجميع الأوتار فتطيعه، فقد اجتمع في صوته ضحك الرعود، ودموع الأمطار، ورقص الرياح والأشجار.

ومذ عرفت هذا صارت قيثارتي ذات وتر واحد، ولم يعد لصوتي أن يحوك لا تذكارات الأمس ولا آمال الغد، ولذلك رميت بقيثارتي جانباً وعوّلت على الاعتصام بالصمت. ولكنني عند كل شفق أصغي بجماع نفسي، لأسمع الشاعر الذي هو أمير جميع الشعراء.

لاوي التلميذ
في المجريين والمرائين

في أحد الأمساء مرّ يسوع ببيتي، فاستيقظت نفسي في أعماقي.

فخاطبني قائلاً: هلمّ يا لاوي واتبعني.

فتبعته في ذلك اليوم.

وفي مساء اليوم التالي طلبت إليه أن يدخل بيتي ويشرفني بضيافته، فعبثر فوق عتبتي هو وأصدقاؤه وباركني مع امرأته وأولادي.

وكان في بيتي ضيوف غيره من الكتبة والعلماء ولكنهم كانوا ضدّه في قلوبهم.

وعندما جلسنا إلى المائدة سأله أحد الكتبة قائلاً:

أحقيقة أنك أنت وتلاميذك تكسرون الشريعة بإيقادكم ناراً يوم السبت؟

فأجابه يسوع قائلاً: نحن بالحقيقة نوقد ناراً يوم السبت، فإنّنا نودّ أن ننير يوم السبت، ونحرق بمشعلنا كل القش اليابس المتجمع في جميع الأيام.

فقال له كاتب آخر: وقد أخبرونا أنّك تشرب خمراً مع غير الأنقياء في الفندق.

فأجاب يسوع وقال: نعم وهذه أيضاً نتنعم بها. أفهل جئنا إلى هنا إلاّ لنشاطر غير المتوّجين فيكم رغيفهم وكأسهم؟

قليلون، بل أقلّ من القليلين هم الذين لا ريش لهم ولكنهم يجرؤون على مقاومة الريح، وكثيرون هم المجنّحون والمرّيشون الذين ما برحوا في أعشاشهم.

ونحن نطعم الجميع بمنقارنا، الكسالى والمجتهدين بالسوية.

فقال كاتب ثالث: ألم أسمع أنّك تحامي عن زواني أورشليم؟

حينئذ رأيت بعيني كأنّ أعالي لبنان الصخرية قد ارتسمت على وجه يسوع، فقال: نعم، كل ما سمعتموه حقيقي.

ففي يوم الحساب ستقف هؤلاء النسوة أمام عرش أبي وسيتنقين بدموعهن، أما أنتم فسيحكم عليكم بقيود دينونتكم.

إن بابل لم تخربها الزواني، ولكن بابل تحوّلت إلا رماد لكي لا تنظر عيون المرائين فيها نور النهار فيما بعد.

وكان كتبة آخرون يودون أن يسألوه أيضاً، غير أنّني أشرت عليهم بالصمت، لأنّني عرفت أنّه سيخذلهم، وبصفتهم ضيوفاً في بيتي لم أشأ أن تلحقهم إهانة.

وعند انتصاف الليل ترك الكتبة منزلي وقد تخلعت نفوسهم.

حينئذٍ أغمضت عينيّ فرأيت، كما لو كنت في رؤيا، سبع نساء بثياب بيضاء واقفات حول يسوع. وكنّ واقفات بخشوع وقد صلبن أذرعهنّ على صدورهنّ وحنينَ رؤوسهنّ، وإذ تأمّلت مليّاً بضباب حلمي نظرت وجه واحدة منهنّ فأشرق لامعاً في ظلمة خيالي.

وكان ذلك الوجه وجه الزانية التي عاشت في أورشليم.

ثمّ فتحت عينيّ ونظرت إلى يسوع، فإذا هو يبتسم وينظر إليّ وإلى جميع الذين لم يتركوا المائدة.

فأغمضت عينيّ ثانية، وهنالك رأيت في النور سبعة رجال بثياب بيضاء واقفين حول المعلم. وإذ تأملتهم عرفت وجهاً من وجوههم.

وكان ذلك الوجه وجه اللّص الذي صلب فيما بعد عن يمينه.

وبعد ذلك ترك يسوع وأصحابه منزلي وساروا في طريقهم.

أرملة الجليل
يسوع القاسي

كان ابني بكراً لي وكان الولد الوحيد الذي ولدته. وكان يشتغل في حقلنا، وكان راضياً بعمله حتى سمع الرجل المدعو يسوع يخاطب الجموع، حينئذٍ تغير ابني فجأة، كأن روحاً غريبة غير صحيحة عانقت روحه.

فترك الحقل والبستان، وتركني أنا أيضاً، وصار خاملاً يعيش بين رعاع الطريق.

إن ذلك الرجل، المدعو يسوع الناصري، شرير، لأن أي رجل صالح يفصل ابناً عن والدته؟

وكان آخر ما قاله لي ابني هكذا: أنا ماضٍ مع أحد تلاميذه إلى البلاد الشمالية، لأنّني قد جدّدت بناء حياتي على صخرة الناصري، أنت قد ولدتني وأنا شاكر لك صنيعك، ولكن الواجب الأسمى يدعوني إلى الذهاب، أما أنا تارك لك أرضنا الغنية وكل ما لنا من الفضة والذهب؟ إنّني لن أحمل معي شيئاً إلا هذا الثوب وهذه العصا.

هكذا خاطبني ابني وفارقني.

واليوم قد قبض الرومانيون والكهنة على يسوع وصلبوه، وحسناً فعلوا.

فإنا لرجل الذي يفرّق الابن عن أمّه لا يمكن أن يكون من الله.

والرجل الذي يرسل أولادنا إلى مدن الأمم لا يقدر أن يكون لنا صديقاً.

إنّني أعراف أنّ ابني لن يرجع إليّ، فقد رأيت ذلك في عينيه، ولأجل هذا أبغض يسوع الناصري الذي سبب وحدتي في هذا الحقل غير المفلوح وهذا البستان الذابل.

وقد أبغضت كل من يمدحه.

قيل لي منذ أيام إن يسوع قال مرة: إن أبي وأمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلامي ويتبعونني.

ولكن لماذا يجب على الأبناء أن يتركوا أمهاتهم ويتبعوا خطواته؟

ولماذا يجب أن ينسى حليب ثدييّ في سبيل ينبوع لم يذق بعد؟ وحرارة ذراعيّ يعرض عنها من أجل بلاد الشمال الباردة والممتلئة بالعداء؟

إلا أنّني أبغض ذلك الناصري، وسأبغضه إلى آخر أيامي، لأنّه سرق بكري وحرمني وحيدي.

يهوذا نسيب يسوع

موت يوحنا المعمدان

حدث في ليلة من ليالي آب أنّنا كنّا مع المعلم في مرج قريب من البحيرة. وقد أطلق القدماء على هذا المرج اسم مرج الجماجم.

وكان يسوع مضطجعاً على العشب يتأمل النجوم.

وحدث فجأة أن رجلين ركضا إلينا بأنفاس متقطّعة، وكانت أمائر الألم مرتسمة على ملامحهما، فركعا على قدمي يسوع.

فوقف يسوع وقال لهما: من أين جئتما؟

فأجابه أحدهما: من ماخاروس.

فنظر إليه يسوع مضطرباً وقال: وما حلّ بيوحنّا؟

فأجابه الرجل: قد قتلوه اليوم، وقد قطعوا رأسه في سجنه. فرفع يسوع رأسه، ثم مشى بعيداً عنّا قليلاً. وبعد هنيهة رجع ووقف في وسطنا.

فقال لنا: كان في منال الملك أن يقتل النبي قبل اليوم. بالحقيقة أن الملك قد جرب كل ملذات رعاياه، ولكن ملوك القدماء لم يكونوا بطيئين هكذا بإعطاء رأس نبي لصيادي الرؤوس.

إنّني لست حزيناً من أجل يوحنا، بل أنا حزين من أجل

هـيرودوس الـذي سـمح بسـقوط السـيف. مسـكين هـو الملـك! فـهو كالحيوان الذي يقبضون عليه ويقودونه بحلقة وحبل.

ما أشقى رؤساء الربع هـؤلاء! فإنّـهم إذ يتيـهون فـي ظلمتـهم يعثرون ويسقطون. وهل ترجون من البحر القذر إلا أسماكاً ميتة؟

أنا لا أبغض الملوك، فليحكموا الناس، ولكن على شرط أن يكونوا أحكم من الناس.

ثم نظر المعلم إلى وجهي الرسولين الكئيبين وإلى وجوهنا وخاطبنا ثانية وقال: فقد ولد يوحنا مجروحاً. وكان دم جرحه يفيض مع كلامه. فقد كان حرية لم تتحرّر بعد من ذاتها، وصبراً لا يعرف إلا المستقيمين والأبرار.

بالحقيقة إنّه كان صوتاً صارخاً في أرض الذين لهم آذان ولا يسمعون وقد أحببته في كآبته ووحدته.

وأحببت كبرياءه التي قدمت رأسها للسيف قبل أن نسلمه للتراب.

الحق أقول إن يوحنا بن زكريا هو آخر أبناء جنسه، وقد قتل كأسلافه بين عتبة الهيكل والمذبح.

ثم مشى ثانية بعيداً عنا قليلاً.

وبعد دقيقة من الزمان رجع وقال: هكذا كان وهكذا

سيكون، إن الذين يحكمون ساعة سيقتلون الذين يحكمون أعواماً، وهكذا سيكون أبداً أنهم يعقدون مجالسهم ويحكمون على الرجل الذي لم يولد بعد، ويقضون بموته قبل أن يرتكب الجريمة.

إن ابن زكريا سيعيش معي في ملكوتي وسيكون نهاره طويلاً.

ثم التفت إلى تلميذي يوحنا وقال: لكل عمل غده. وأنا نفسي قد أكون غداً لهذا العمل. فاذهبا إلى أصدقاء صديقي وقولا لهم إنني سأكون معهم.

فانصرف الرجلان في طريقهما، وكانا أقلّ كآبة من الوقت الذي وصلا فيه.

أما يسوع فاضطجع على العشب ثانية وبسط ذراعيه وعاد إلى التأمل بالنجوم.

وكانت ساعة متأخرة من الليل، وكنت متكئاً بجانبه، أتوق إلى الراحة من كل قلبي، ولكن يداً خفية كانت تقرع على بوابة نومي، ولذلك بقيت مستيقظاً حتى دعاني يسوع والفجر إلى الطريق.

رجل من الصحراء
في الصيارفة

كنت غريباً في أورشليم. وقد أتيت إلى المدينة المقدسة لأنظر الهيكل العظيم، وأقدم ذبيحتي على المذبح، لأن زوجتي ولدت صبيين توأمين لقبيلتي.

وبعد أن قدّمت ذبيحتي وقفت في رواق الهيكل أنظر إلى الصيارفة وبائعي الحمام، وأصغي إلى الضجيج العظيم المتصاعد من الدار.

وفيما كنت واقفاً دخل رجل فجأة ووقف في وسط الصيارفة وبائعي الحمام.

وكان رجلاً وقوراً عظيماً، وقد دخل بسرعة عجيبة.

وكان يحمل بيده حبلاً مصنوعاً من جلود التيوس، فشرع يقلب موائد الصيارفة ويضرب بائعي الطيور بحبله.

وقد سمعته يقول بصوت عظيم: أطلقوا هذه الطيور في الجو الذي هو عشّها.

وكان الرجال والنساء يهربون من أمام وجهه، وهو يتحرك بينهم كما تتحرك زوبعة الريح على تلال من الرمل.

كل هذا حدث بلحظة واحدة، ففرغت دار الهيكل من

الصيارفة. ولكن الرجل وقف هناك وحده، وكان أتباعه يقفون بعيداً.

ثم أدرت وجهي فرأيت رجلاً آخر في رواق الهيكل. فسرت إليه وقلت له: هل لسيدي أن يخبرني من هو هذا الرجل الواقف وحده كأنّه هيكل ثانٍ؟ فأجابني وقال: هذا هو يسوع الناصري، النبي الذي ظهر أخيراً في الجليل، ولكن جميع الناس هنا في أورشليم يبغضونه.

فقلت: إن في قلبي من القوة ما يحملني لأن أكون مع سوطه، وفيه من الاستسلام ما يحملني للسجود عند قدميه.

أما يسوع فإنّه رجع إلى رفقائه الذين كانوا ينتظرونه. ولكن قبل أن يصل إليهم رجعت ثلاث حمامات من حمام الهيكل فحطت واحدة على كتفه اليسرى والاثنتان عند قدميه، فوضع يده بلطف عجيب على كل منها، ثم تابع سيره، وكان في كل خطوة من خطواته فراسخ عديدة.

بربّكم أخبروني بأية قوة ضرب المئات من الرجال والنساء وفرّقهم من غير أقل مقاومة؟ فقد قيل لي إنّهم كلهم أبغضوه، ولكن لم يجرؤ أحد أن يقف أمامه في ذلك اليوم. فهل قلع أنياب البغض في طريقه إلى دار الهيكل؟

بطرس
في مستقبل التلاميذ

ذهب بنا يسوع مرةً عند غروب الشمس إلى قرية بيت صيدا. وكان التعب آخذاً مأخذه من جماعتنا، وكان غبار الطريق محيقاً بنا. فأتينا إلى منزل كبير في وسط بستان جميل، وكان رب البيت واقفاً أمام البوّابة.

فقال له يسوع: إنّ هؤلاء الرجال تعبون، وقد تقرحت أقدامهم من المشي، فدعهم ينامون في بيتك، فإن الليلة باردة وهم في حاجة إلى الدفء والراحة. فأجاب الغني وقال: إنّهم لن يناموا في بيتي.

فقال له يسوع: فاسمح لهم إذاً أن يناموا في بستانك.

فأجاب الرجل: كلاّ ولا أسمح لهم بالنوم في بستاني.

ثم التفت يسوع إلينا وقال: إن هذا مثال مما ستصيرون إليه في الغد، وهذا الحاضر يشبه مستقبلكم. إن جميع الأبواب ستقفل في وجوهكم، حتى إن البساتين المتكئة تحت النجوم ستقفل أبوابها دونكم.

فإذا صبرت أقدامكم على عناء الطريق وثبّتم، تتبعوني، فإنّكم قد تجدون طستاً وفراشاً، وربما خبزاً وخمراً أيضاً. ولكن إذا حدث ولم تجدوا شيئاً من هذا فلا تنسوا في ذلك الوقت أنّكم قد

عبرتم صحراء واحدة من صحارى معلمكم.

هلمّ بنا نمض من هنا.

أما الرجل الغني فإنّه كان مضطرباً، وقد تغيّر لون وجهه، وكان ينطق بكلمات لم أسمعها، فتحوّل عنّا وارتدّ إلى بستانه.

وهكذا تبعنا يسوع على الطريق.

ملاحي الفلكي البابلي
في عجائب يسوع

تسألونني عن عجائب يسوع.

في كل ألف ألف سنة تجتمع الشمس والقمر وهذه الأرض وجميع شقيقاتها السيارات في خطّ مستقيم، ويتباحثن معاً هنيهة واحدة.

ثم يتفرقن ببطء وينتظرن مرور ألف الف سنة أخرى.

لا عجائب في الوجود وراء الفصول، ولكن أنت وأنا لا نعرف كلّ الفصول، وما قولك في فصل كامل يتجسّد بشكل رجل واحد؟

في يسوع اجتمعت كل عناصر أجسادنا وأحلامنا طبقاً للشريعة. وكل ما كان من قبله سابقاً لأوانه قد وجد فيه أوانه.

يقولون إنّه كان يعطي العميان بصراً والمقعدين مقدرةً على المشي، وإنّه كان يخرج الشياطين من المجانين.

قد لا يكون العمى إلا فكرةً مظلمة يمكن التغلب عليها بفكرة ملتهبة. وقد لا يكون العضو المشلول إلا خمولاً يمكن إيقاظه بالقوة المتحركة. وقد يكون أن الشياطين، وهي العناصر القلقة في حياتنا، تخرجهم منّا ملائكة السلامة والطمأنينة.

ويقولون إنّه أعاد الموتى إلى الحياة. فإذا كنت تقدر أن تخبرني

ما هو الموت فأنا حينئذ أخبرك ما هي الحياة.

نظرت مرة في أحد الحقول بلوطة هادئة لا قيمة لها ولا شأن. وعدت في الربيع فرأيت تلك البلوطة تمدّ جذورها في الأرض وتنهض لتصير سنديانة جبّارة أمام وجه الشمس.

أنت ولا شكّ تحسب هذا أعجوبة، ولكن هذه الأعجوبة تصنع ألف ألف مرة في غفلة كل خريف وشوق كل ربيع.

فماذا يمنع حصولها في قلب الإنسان؟ أفلا تقدر الفصول أن تجتمع في يد إنسان ممسوح أو على شفتيه؟

فإذا كان إلهنا قد منح الأرض أن تحتضن البذور في حين أن البذور ميتة بحسب الظاهر، فلماذا لا يمنح قلب الإنسان أن ينفخ نسمة الحياة في قلب آخر، وإن كان هذا القلب ميتاً بحسب الظاهر؟

قد تكلمت عن هذه العجائب التي لا أعيرها سوى القليل من الانتباه تجاه الأعجوبة الكبرى، التي هي الرجل نفسه، العابر السبيل، الرجل الذي حوّل نفاية الصدأ فيّ إلى ذهب وهّاج، وعلّمني كيف أحبّ الذين يبغضونني وبعمله هذا حمل إليّ التعزية الكاملة وكلل نومي بالأحلام اللذيذة.

هذه هي الأعجوبة في حياتي.

كانت نفسي عمياء، وكانت نفسي عوجاء، وكان في أعماقي كثير من الأرواح القلقة، وكنت ميتاً.

أما اليوم فأنا أرى بوضوح، وأمشي مستقيماً، وقد عاودتني سلامتي وأنا أعيش لأشهد وأعلن عجائب كياني في كلِّ ساعة من النهار.

وأنا لست من أتباعه، بل أنا فلكي شيخ أزور حقول الفضاء مرة في كل فصل، وأحترم الشريعة وأصدق بعجائبها.

أنا الآن في شفق زماني، ولكنني كلما فتشت عن فجره إنما أفتش بالحقيقة عن شباب يسوع.

إن العمر ينشد الشباب أبداً، ولكن بي تفتش المعرفة عن الرؤيا.

فيلسوف
في العجب والجمال

عندما كان معنا كان ينظر إلينا وإلى أعمالنا بعين العجب، لأن عينيه لم تتقنّعا ببرقع السنين، وكل ما رآه كان واضحاً في نور شبابه.

ومع أنّه سبر غور الجمال فقد كان ينذهل أبداً أمام سلامه وجلاله، وقد وقف أمام الأرض كما وقف الإنسان الأول أمام اليوم الأول.

أما نحن الذين تخدّرت حواسّنا فإنّنا ننظر في نور النهار الكامل ولكننا لا نرى شيئاً. فنحن نحجم آذاننا ولكننا لا نسمع، ونمدّ أيدينا ولكننا لا نلمس. ولو احترق أمامنا كلّ بخور العربيّة فإنّنا نسير في طريقنا من غير أن نشتمّ رائحة.

نحن لا نرى الزارع عائداً من حقله عند المساء، ولا نسمع مزمار الراعي وهو يقود قطيعه إلى العلف، ولا نمدّ أذرعنا لنلامس غروب الشمس، ومشامّنا لا تجوع فيما بعدُ لعبير زهور شارون.

أجل، نحن لا نكرم ملوكاً بدون ممالك، ولا نسمع أنغام القيثارة ما لن نضع أوتارها بأيدينا، ولا نرى الولد الذي يلعب في بستان زيتوننا كما لو كان هو نفسه شجرة من الزيتون. وجميع الأقوال يجب أن تخرج من شفاه من اللحم، وإلا فنحن نحسب بعضنا

بعضاً خُرساً وصُمّاً.

بالحقيقة إنّنا ننظر ولا نبصر، ونصغي ولا نسمع، ونأكل ونشرب ولكننا لا نذوق. وفي جميع هذا يقوم الفرق الأولي بين يسوع الناصري وبيننا.

فقد كانت جميع حواسه تتجدّد فيه أبداً، وكان العالم في نظره جديداً دائماً.

ولم يكن نظره إلى تمتمة الطفل بأقلّ من نظره إلى صراخ الإنسانية بكاملها، في حين أنها في نظرنا تمتمة طفل لا أكثر ولا أقلّ.

وكان جذر الشقيق الأصفر في عقيدته حنيناً إلى الله، ولكنه ليس في نظرنا سوى جذر بسيط.

أوريا الشيخ الناصري
كان غريباً في وسطنا

كان غريباً في وسطنا ، وكانت حياته مستورة تحت نقاب مظلم. لم يسر في طريق إلهنا ، ولكنه اتبع طرق الأشرار والأردياء.

قد ثارت صبوته ورفضت حلاوة الحليب الذي في طبيعتنا.

وكان شبابه ملتهباً كالقش اليابس المحترق في الليل.

وعندما صار رجلاً حمل السلاح ضدنا جميعاً.

إن أمثال هؤلاء الرجال يحبل بهم في جزر اللطف البشري ويولدون في العواصف الشرّيدة. وفي العواصف الهوجاء يعيشون يوماً ثم يهلكون إلى الأبد.

ألا تتذكرونه جيداً وهو في عهد الفطام، يجادل شيوخنا العلماء ويهزأ بجلالهم ووقارهم؟

أفلا تذكرون شبابه ، إذ عاش بين المنشار والإزميل رافضاً أن يرافق أبناءنا وبناتنا في أيام الأعياد ومختاراً العزلة لنفسه؟

لم يكن يردّ تحية لمن يحيّيه من المارّة كأنّ طينتهُ أرفع من طينتنا. قد رأيته أنا نفسي مرةً في الحقل فحييته ، فابتسم فقط ، فرأيت في ابتسامته غطرسة واحتقاراً.

وبعد ذلك بقليل من الزمن ذهبت ابنتي إلى الكرم مع رفيقاتها لتقطف العنب، وهي أيضاً خاطبته فلم يردّ عليها جواباً.

بيد أنّه وجه خطابه لجميع العاملات في الكرم، كأن ابنتي لم تكن معهنّ.

وعندما ترك أهله وهام في البلاد خسر كل شيء وصار ثرثاراً، وكان صوته كالمخلب ينشب في أجسادنا، ولا يزال صدى صوته ألماً في ذاكرتنا.

إنّه لم يتكلم بغير الشر عنّا وعن آبائنا وأجدادنا، وكان لسانه كالسهام المسمومة في قلوبنا.

هذا هو يسوع.

ولو كان هذا ابناً لي لكنت أرسلته مع جيوش الرومانيين إلى بلاد العرب، ولكنت طلبت إلى القائد أن يضعه في مقدمة المقدمة من الجيش في ساحة الحرب لتذهب به سهام العدو وتحررني من غطرسته ووقاحته.

ولكن لا ابن لي، وأنا شاكر ربي على ذلك، لأنّه ماذا كان يصيبني لو أن ابني كان عدوّاً لشعبه، وكان شعري الأبيض اليوم يطلب الرماد في عاره ولحيتي البيضاء تحتقر وتهان؟

نيقوذيموس الشاعر
أصغر الشيوخ في السنهدريم

كثيرون هم الأغنياء الذين يقولون إن يسوع وقف في طريق نفسه وقاوم ذاته، وإنّه لم يعرف فكره، وفي ضياع هذه المعرفة عمل على تضليل ذاته.

بالحقيقة ما أكثر البوم التي لا تعرف من الأغاني غير ما شابه نعيبها.

أنا وأنت نعرف مشعوذي الكلام الذين لا يحترمون إلاّ من كان أكبر شعوذة منهم. هؤلاء هم الذين يحملون رؤوسهم في سلال إلى السوق ويبيعونها بأول ثمن يعرض عليهم.

نحن نعرف الأقزام الذين يتحاملون على من تلمس رؤوسهم السماء، ونعرف ما يقوله العوسج عن السنديانة والأرزة.

إنّني أشفق عليهم لأنّهم لا يقدرون أن يصعدوا إلى الأعالي.

إنّنا أشفق على الشوكة الجافة في حسدها للدردار الذي يجرؤ على الفصول.

ولكن الشفقة، ولو أحاط بها أسف جميع الملائكة، فهي لا تحمل لهم نوراً.

إنّني أعرف اللعين الذي يتمايل بأثوابه الرثة على أذنات الزرع

ولكنه ميت أمام الزرع وأمام الريح المترنّمة.

وأعرف العنكبوت التي لا جناح لها تحوك الشباك لاصطياد كل ذي جناح.

وأعرف الماكرين، ونافخي الأبواق، وضاربي الطبول، الذي لا يستطيعون في وفرة ضجيجهم أن يسمعوا قنبرة السماء ولا الريح الشرقية في الغابة.

وأعرف الذي يجذّف في جميع الجداول ولكنه لا يجد الينبوع، ويركض مع جميع الأنهار ولكنه لا يجرؤ على السير إلى البحر.

وأعرف الذي يقدّم يديه البليدتين إلى رئيس البنّائين في الهيكل، وعندما ترفض يداه البليدتان ينبري قائلاً في ظلمة قلبه: سأهدم كل ما سيبنى.

إنّني أعرف جميع هؤلاء. هم الذين يعترضون على أن يسوع قال مرّة: إنّني أحمل سلاحاً لكم. وفي مرة ثانية قال: إنّني أحمل سيفاً.

فهم لا يقدرون أن يفهموا أنّه نطق بالحقيقة عندما قال: إنّني أحمل سلاماً لأبناء السلامة، وأضع سيفاً بين من يحبّ السلام ومن يحبّ السيف.

ويتعجبون كيف أن الذي قال: إن مملكتي ليست من هذا العالم، قال أيضاً: اعطوا ما لقيصر لقيصر. ولكنهم لا يعلمون أنهم

إذا رغبوا حقّاً في أن يكونوا أحراراً ليدخلوا ملكوت رغبات قلوبهم، فالواجب يقضي عليهم ألا يقاوموا الحارس الواقف على بوابة حاجتهم. ففي مصلحتهم أن يدفعوا ذلك الرسم الحقير ليدخلوا إلى تلك المدينة.

هؤلاء هم القائلون: قد علم باللطف والحنان والمحبة العائلية ولكنه لم يحفل بأمه وإخوته عندما كانوا يفتشون عنه في شوارع أورشليم.

وهم لا يعلمون أن أمّه وإخوته كانوا يودون في مخاوف محبتهم أن يرجعوه إلى مصنع النجار، أما هو فكان يريد أن يفتح عيوننا لنبصر فجر يوم جديد.

إن أمه وأخوته كانوا يريدون أن يعيش في ظلّ الموت، أما هو فقد استنهد الموت على تلك التلّة ليظلّ حيّاً في ذاكرتنا التي لا تنام.

إنّني أعرف هذه المناجذ التي تحفر الأنفاق بدون غاية معروفة. أليسوا هم الذين يتحاملون على يسوع بقولهم إنّه كان يعظم نفسه عندما قال للجموع: أنا الطريق والباب للخلاص، وإنّه دعا نفسه الحياة والقيامة؟

ولكن يسوع لم يدّع لنفسه أكثر مما يدعي شهر أيار في مدّه.

أفما كان له أن يعلن الحقيقة اللامعة لأن لمعانها كان شديداً؟

فقد قال بالحقيقة إنّه الطريق والحياة والقيامة للقلب، وأنا نفسي أشهد بصحة هذا القول.

أفلا تتذكرونني، أنا نيقوذيموس، الذي لم يؤمن بغير الشريعة وأوامر الناموس، وكان في مقدمة الطائعين للقانون؟

فانظروا إليّ الآن، تروا رجلاً يمشي مع الحياة، ويضحك مع الشمس من ابتسامتها الأولى للجبال حتى تسلم نفسها إلى فراشها وراء التلال.

لماذا تتوقفون أمام كلمة الخلاص؟ فأنا نفسي بواسطته حصلت على خلاصي.

فلا يهمّني اليوم ما سيصيبني في الغد، لأنّني أعرف أن يسوع أنعش منامي وجعل لي من أحلامي البعيدة رفقاء وأصدقاء للطريق.

فهل أصير أصغر من إنسان إذا آمنت بمن هو أعظم من إنسان؟

إن حواجز اللحم والدم قد سقطت عندما خاطبني شاعر الجليل. وقد قبضت عليّ روح، فارتفعتُ إلى الأعالي، وفي وسط الهواء جمعت أجنحتي أغنية الهواء النقيّ.

وعندما نزلت عن متن الريح وظهرت غرابة آرائي في السنهدريم، فإنّني حتى في ذلك المجلس الأعلى لم أخسر أغنيّتي، لأن ضلوعي، التي هي أجنحتي بغير ريش، قد احتفظت بالأغنية وحرستها. وكل ما في الأرض الحقيرة من الفقر المدقع لن يستطيع أن يسلبني كنزي.

قد تكلمت بما فيه الكفاية. دع الطرش يدفنون تمتمة الحياة

في آذانهم الميتة. فأنا راضٍ بأنغام قيثارته التي كان يحملها ويضرب على أوتارها عندما سمّروا يدي جسده على الصليب ونزفت منهما الدماء.

يوسف الذي من الرامة
بعد عشر سنوات

الجدولان النابعان من قلب يسوع.

كان في قلب الناصري جدولان يجريان: جدول القرابة مع الله الذي سماه أباً، وجدول الهيام الذي دعاه ملكوت العالم العلوي. وفي عزلتي طالما فكرت فيه، وتبعت هذين الجدولين النابعين من قلبه. فعلى حافة الجدول الأول وجدت نفسي، وكانت نفسي تارة متسولة وهائمة، وطوراً أميرة في بستانها.

ثم تبعت الجدول الثاني في قلبه، وفي طريقي وجدت رجلاً ضربه اللصوص وسرقوا ذهبه، ولكن الابتسامة لم تفارق شفتيه. ولكنني لم أبعد قليلاً حتى وجدت اللصوص الذين سرقوه، وبعد أن تأمّلت وجوههم رأيت على وجناتهم دموعاً لم تذرفها عيونهم بعد.

ثم سمعت خرير هذين الجدولين في أعماقي أنا أيضاً، فامتلأت بهجة. عندما زرت يسوع قبل أن قبض عليه بيلاطس البنطي والشيوخ بيوم واحد، تكلمنا مليّاً، وسألته أسئلة كثيرة، وقد أجاب على جميع مسائلي بكمال المسرة. وعندما تركته عرفت أنّه هو الربّ والسيد لهذه الأرض التي نعيش فيها.

قد سقطت الأرزة منذ عهد طويل، ولكن عطرها سيقيم أبداً، وسينشد زوايا الأرض الأربع إلى الأبد.

جارجيوس البيروتي
في الغرباء

كان يسوع مع أصدقائه في حرج الصنوبر وراء سياجي، وكان يخاطبهم. فوقفت قريباً من السياج أتسمّع على كلامه. فقد عرفته من هو، لأن شهرته وصلت إلى هذه الشواطئ قبل أن زارها هو.

وعندما فرغ من كلامه تقدّمت إليه وقلت له: هلمّ يا سيدي مع هؤلاء الرجال وشرِّف منزلي بزيارتك.

فنظر إليّ مبتسماً وقال: ليس في هذا اليوم، يا صاح، ليس في هذا اليوم.

وكان في كلماته بركة، وشعرت بأنّ صوته يضمني كالرداء الصوفيّ في ليلة باردة.

ثم التفت نحو أصدقائه وقال: انظروا رجلاً لا يحسبنا غرباء، ومع أنّه لم ينظرنا قبل اليوم فهو يدعونا إلى بيته.

بالحقيقة إنّه لا يوجد غرباء في ملكوتي. إن حياتنا هي حياة جميع الناس، وقد أعطيناها لنعرف جميع الناس، وبتلك المعرفة نحبهم.

إن أعمال جميع الناس هي أعمالنا بعينها الخفية والظاهرة.

أستحلفكم ألا تكونوا ذاتاً واحدة، بل ذوات عديدة - مالك البيت ومن لا بيت له، الزارع والزرزور الذي يلتقط الحبوب قبل أن تنام

فـي الأرض، المعطـي الـذي يعطـي بشـكر والمسـتعطي الـذي يـأخذ بكبرياء ومعرفة.

إن جمال النهار لا يقتصر على ما ترونه أنتم، بل يشمل ما يراه غيركم أيضاً لأجل هذا قد اخترتكم من بين الكثيرين الذين اختاروني.

ثم نظر إليّ وتبسم ثانية وقال: إنّني أقول كل هذا لك أنت أيضاً، وأنت أيضاً ستذكر كلماتي.

ثم توسّلت إليه قائلاً: يا سيدي أفلا تزورني في بيتي؟

فأجاب: إنّني أعرف قلبك وقد زرت بيتك الأكبر.

وعندما مشى قليلاً مع تلاميذه قال: أسعد الله مساءك وليكبر الله بيتك حتى يأوي جميع الهائمين في هذه الأرض.

مريم المجدلية
كان فمه كقلب الرمانة

كان فمه كقلب الرمانة، وكانت ظلال عينيه عميقة.

كان لطيفاً كالرجل الذي يعرف قوّته.

قد رأيت في أحلامي ملوك الأرض واقفين احتراماً في حضرته.

إنّني أودّ أن أتكلّم عن وجهه، ولكن كيف أستطيع ذلك؟

فقد كان كالليلة التي لا ظلمة فيها، وكالنهار الذي لا يعرف ضجيج النهار.

كان وجهاً كئيباً، ولكنه كان ممتلئاً فرحاً.

إنّني أتذكر جيداً كيف رفع يده مرّة نحو السماء، فبدت أصابعه المتفرقة كأغصان الدردار.

وأذكره جيداً وهو يقيس الماء بخطواته، إنّه لم يكن يمشي. فهو نفسه كان طريقاً فوق الطريق، كما أن السحابة التي فوق الأرض تنحدر لتنعش الأرض.

بيد أنّني عندما وقفت أمامه وخاطبته كان رجلاً، وكان وجهه يملأ عين الناظر إليه قوّة. وقد قال لي: ماذا تريدين يا ميريام؟

إنّني لم أجاوبه، ولكن أجنحتي احتضنت سرّي، فسرت الحرارة في جسدي.

وإذ لم أقدر على احتمال نوره تركته وسرت في طريقي، ولكن عاري فارقني. ولم يبقَ لي سوى الحياة فقط، والرغبة في أن أكون وحدي لتضرب أصابعه على أوتار قلبي.

يوثام الناصري إلى أحد الرومانيين
في الحياة والوجود

أنت يا صديقي كجميع الرومانيين، تودّ أن تتصور الحياة أكثر من أن تحياها. وتفضّل أن تحكم الأرض ولا تكون محكوماً من الروح.

أنت تفضّل أن تقهر الشعوب فيلعنك أبناؤهم، على أن تبقى في رومة مباركاً سعيداً.

أنت لا تفكّر إلاّ في الجيوش الزاحفة والسفن الماخرة في البحر.

إذن كيف تستطيع أن تفهم يسوع الناصري، الرجل البسيط الوحيد الذي جاء بغير الجيوش والسفن، ليؤلّف مملكة في القلب وإمبراطورية في حريّة فضاء النفس؟.

كيف تقدر أن تفهم الرجل الذي لم يكن محارباً ولكنه جاء بقوة الأثير القدير؟

فهو لم يكن إلهاً، بل كان إنساناً مثلنا، ولكن فيه نهض مرّ الأرض ليلاقي لبان السماء، وفي كلماته تعانقت تمتمتنا مع همس غير المنظور، وفي صوته سمعنا أنشودة لا يسبر غورها.

نعم، كان يسوع إنساناً ولم يكن إلهاً، وفي هذا منتهى عجبنا ودهشنا.

ولكن أنتم الرومانيين لا تتعجبون إلا أمام الآلهة، وما من رجل يدهشكم، لأجل ذلك لا تفهمون الناصريّ.

فقد اختصّ هو بشباب الفكر، أما أنتم فقد اختصصتم بشيخوخته.

أنتم تحكموننا اليوم، ولكن فلننظر يوماً آخر.

من يدري إذا كان هذا الرجل الذي لا جيوش ولا سفن لديه سيحكم الغد؟

نحن الذين نتبع الروح ستنسكب أعراقنا دماء في سفرنا وراءه، ولكن رومة ستضطجع كالهيكل العظمي في الشمس.

نحن سنتألم كثيراً، ولكننا سنصبر، وسنعيش، ولكن رومة يجب أن تصير إلى التراب.

ولكن إذا كانت رومة، بعد أن توضع من رفعتها وتصير إلى ضعتها، تتلفظ باسمه، فإنّه يصغي إلى صوتها وينفخ في عظامها نسمة حياة جديدة لتنهض ثانية مدينة حيّة بين مدن الأرض.

كل هذا سيفعله بغير جيوش ولا عبيد يجذفون في قواربه، لأنّه سيكون وحيداً.

أفراييم من أريحا
وليمة العرس الثاني

عندما جاء ثانية إلى أريحا ذهبت إليه وقلت له: يا معلّم، غداً يتخذ ابني لنفسه زوجة. فأرجو من فضلك أن تحضر إلى وليمة العرس وتشرّفنا بحضورك، كما شرفت العرس في قانا الجليل.

فأجاب وقال: بالحقيقة إنني كنت ضيفاً في وليمة عرس مرّة ولكنني لن أكون ضيفاً ثانية، فأنا نفسي اليوم عروس.

فقلت له: أتوسل إليك يا معلم أن تأتي إلى وليمة عرس ابني.

فتبسم كأنّه يريد أن يوبخني، وقال: لماذا تتوسل إليّ؟ ألا يوجد عندك كفاية من الخمر؟

فقلت له: إن زقاق الخمر ممتلئة يا معلم، بيد أنّني أتضرّع إليك أن تحضر إلى وليمة عرس ابني.

حينئذٍ قال لي: من يدري؟ فقد أحضر. نعم قد أحضر إذا كان قلبك مذبحاً في هيكلك.

وفي الغد تزوّج ابني، ولكن يسوع لم يأتِ إلى وليمة العرس.

ومع أنّه جاءنا ضيوف كثيرون فقد شعرت بأنّه لم يأتِ أحد.

بالحقيقة إنّني أنا نفسي الذي أستقبل الضيوف لم أكن هناك.

ومن يدري؟ فلعلّ قلبي لم يكن مذبحاً عندما دعوته. وقد أكون رغبت في أعجوبة ثانية.

برقا التاجر الصوري
في البيع والشراء

في عقيدتي أنّه لا اليهود ولا الرومانيون فهموا يسوع، حتى ولا تلاميذه أنفسهم الذين يبشرون اليوم باسمه.

فالرومانيون قتلوه، وهذه كانت زلّة لهم. والجليليون أحبوا أن يصنعوا منه إلهاً، وهذه كانت غلطة لهم.

كان يسوع من قلب الإنسان.

قد قطعت البحار السبعة بمراكبي، وتعاملت مع الملوك والأمراء والمحتالين والخداعين في ساحات المدن القصية، ولكنني لم أرَ رجلاً يفهم التجّار كما فهمهم يسوع.

سمعته مرّة يضرب هذا المثل قال:

سافر أحد التجار من بلاده إلى بلاد غريبة. وكان له خادمان فأعطى كلاً منهما قبضة من الذهب وقال لهما: كما أنني أمضي إلى بلاد الغربة وراء الربح هكذا يجدر بكما أن تطلبا الربح من أموالكما. فاعتصما بالدقّة، في معاملة الناس أخذاً وعطاء.

وبعد سنة رجع التاجر، فسأل خادميه عما فعلاه بذهبه، فقال له الخادم الأول: تأمّل يا سيدي، فقد بعت واشتريت وربحت. فأجابه

التاجر قائلاً: الربح هو لك، لأنّك تصرفت حسناً وكنت أميناً لي ولنفسك.

ثم وقف الخادم الثاني وقال له: يا سيدي فقد خفت أن أخسر أموالك ولذلك لم أشترِ ولم أبع. وهو ذا مالك كلّه في هذا الكيس. فأخذ التاجر ذهبه وقال له: يا قليل الإيمان، إنّك لو تاجرت وخسرت لكان ذلك خيراً لك من أن تكون كسولاً، لأنّه كما أن الريح تفرق البذور وتنتظر الأثمار هكذا يجب أن يفعل كل التجار. لذلك كان الأجدر بك أن تخدم الآخرين.

وعندما تكلم يسوع بهذا، فإنّه وإن لم يكن تاجراً، فقد كشف القناع عن سرّ التجارة.

وفوق هذا، فإن أمثاله كثيراً ما كانت تحمل إلى فكري بلداناً أبعد من أسفاري، ولكنها أقرب من بيتي ومقتنياتي.

ولكن الناصري الشاب لم يكن إلهاً، ويؤلمني أن أرى أتباعه يسعون أن يعملوا من هذا الحكيم إلهاً!.

فومية
رئيسة كاهنات صيدا

إلى رفيقاتها الكاهنات.

أحملن أعوادكنّ لأغنّي.

اضربن على الأوتار الفضية والذهبية، فإنّي أريد أن أترنّم بذكرى الرجل الشجاع الذي قتل وحش الوادي ثم جلس ينظر إلى ما قتل بعين الشفقة.

احملن أعوادكنّ لنغني معاً للسنديانة الرفيعة على الأعالي.

لنترنم بذكرى الرجل الذي يلمس قلبه السماء وتحيط يده بالأوقيانوس.

الذي قبّل شفتي الموت الشاحبتين، ولكنه يرتجف الآن أمام فم الحياة.

احملن أعوادكنّ لنغني معاً للصياد الجريء على التلة، الذي اهتدى إلى الحيوان، وأطلق سهمه غير المنظور، فأسقط القرن والناب إلى الأرض.

احملن أعوادكنّ لنغني معاً للشاب الباسل الذي غلب مدن الجبال، ومدن السهول المتجمعة كالأفاعي في الرمال. فهو لم يحارب

ضد الأقزام بل ضدّ الآلهة الجائعة للحمنا والمتعطشة لدمنا.

وكالصقر الذهبي الأول لم يزاحم غير النسور، لأن أجنحته كانت كبيرة وفخورة، فلم تشأ أن تضرب من هو أضعف منها جناحاً.

احملن أعوادكنّ لنغني معاً أغنية البحر والجرف.

فالآلهة قد ماتوا، وهم مضطجعون بهدوء في الجزيرة المنسية في البحر المهجور. أما الذي قتلهم فإنّه جالس على عرشه. قد كان في شرخ شبابه، لأن الربيع لم يكن قد أعطاه لحية، وكان صيفه فتيّاً في حقله.

احملن أعوادكن لنغني معاً للعاصفة في الغابة، التي تحطّم الغصن اليابس والفرع العاري من الورق، بيد أنها ترسل الجذر الحيّ ليمعن في امتصاص حليبه من ثدي الأرض.

احملن أعوادكن لنترنم معاً بأنشودة حبيبتنا الخالدة.

مهلاً يا رفيقاتي، ولا تضربن على أوتاركنّ.

اتركن أعوادكن، فنحن لا نقدر أن نغني الآن.

لأن الهمس الضعيف الذي تبعثه ألحاننا لا يقدر أن يصل إلى عاصفة، ولا قوّة له على اختراق عظمة صمته.

اتركن أعوادكنّ وتجمعن حواليّ لأعيد أقواله على مسامعكنّ وأخبركن بأعماله، لأن صدى صوته هو أعمق من محبتنا.

بنيامين الكاتب
دع الأموات يدفنون موتاهم

يقولون إن يسوع كان عدوّاً لروما ولليهودية.

أما أنا فأقول إن يسوع لم يكن عدوّاً لإنسان ولا لجنس من الناس.

فقد سمعته يقول إن طيور الجوّ وقنن الجبال لا تهتم بالأفاعي في أجحارها وأنفاقها.

دع الموتى يدفنون أمواتهم، وألبس أثواب ذاتك بين الأحياء، وحلق رفيعاً.

لم أكن من تلاميذه، ولكنني تبعته مع الجماهير الكثيرة التي تبعته للتأمل بوجهه.

وكان ينظر إلى روما وإلينا نحن عبيد روما، كما ينظر الأب إلى أولاده اللاعبين بلعبهم وهم يتخاصمون فيما بينهم على اللعبة الكبيرة. وكان يضحك من أعاليه.

أجل، كان يسوع أعظم من الولاية والأمة، بل كان أعظم من الثورة.

كان وحيداً منفرداً وكان يقظةً كاملة.

وقد بكى كلَّ ما لم نسكبه من الدموع، وتبسّم كل ثورتنا وتمردنا.

ونحن قد عرفنا أنّه كان في طوقه أن يولد مع جميع غير المولودين بعدُ، فيساعدهم على أن يروا، ليس بعيونهم، بل ببصيرته.

كان يسوع بداءة لمملكة جديدة على الأرض، ولم يكن لتلك المملكة انتهاء.

فقد كان ابناً وحفيداً لجميع الملوك الذين بنوا مملكة الروح.

ولم يحكم عالمنا أحدٌ قطّ إلا ملوك الروح.

زكا في مصير يسوع

أنتم تؤمنون بما تسمعونه يقال أمامكم، فآمنوا بالأحرى بما لا يقال، لأن صمت الناس أقرب إلى الحقيقة من أقوالهم.

وتسألون إذا كان يسوع قادراً أن يتخلص من عار موته وينقذ أتباعه من الاضطهاد.

وأنا أجيب أنّه بالحقيقة كان قادراً أن يتخلص من الموت لو أراد، بيد أنّه لم يطلب السلامة، ولم يهمه أن يحمي قطيعه من ذئاب الليل.

فقد عرف قسمته، وعرف ما يحمله الغد لمحبيه المخلصين، ولذلك سبق فأنبأ بما سيصيب كل واحد منا. إنّه لم ينشد موته ولكنه قَبِلَ الموت، كما أن الفلاح الذي يواري حنطته في قلب الأرض يقبل الشتاء، ثم ينتظر الربيع والحصاد، وكما يضع البنّاء أكبر الحجارة في الأساس.

إن جماعته قد تألفت من رجال من الجليل ومن منحدرات لبنان. وكان في منال معلمنا أن يرجع بنا إلى بلادنا فنعيش مع شبابه في بساتيننا حتى تأتي الشيخوخة فتردنا إلى قلب السنين.

هل قام في طريقه حاجز يردّه إلى هياكل ضياعنا حيث كان الناس يقرأون الأنبياء ويحسرون القناع عن قلوبهم؟

ألم يقدر أن يقول: ها أنا ماضٍ إلى الشرق مع الريح الغربية، وبقوله هذا يصرفنا بابتسامة على شفتيه؟.

نعم كان قادراً أن يقول لنا: ارجعوا إلى أهلكم لأن العالم غير مستعدّ لاستقبالي. ولذلك سأرجع بعد ألف سنة. فعلّموا أولادكم أن ينتظروا عودتي.

فقد كان قادراً على كل هذا لو أراده.

ولكنه عرف أنّه لكي يبني الهيكل غير المنظور يجب عليه أن يضع نفسه حجر زاوية في أساسه، ويضعنا حواليه حصى صغيرة تلتصق به لقوام البناء.

وعرف أيضاً أن عصارة شجرته الممتدة أغصانها في السماء لا تأتي إلا من جذورها، ولذلك سكب دمه على جذورها، ولم يحسب ذلك ضحية بل ربحاً.

الموت يكشف الأسرار، وقد كشف موت يسوع سرّ حياته.

فلو أنّه هرب منكم وأنتم أعداؤه لكنتم غلبتم العالم. ولذلك لم يهرب.

لأنّه ما من رجل يربح الكلّ إلا إذا أعطى الكل.

نعم، نعم كان في مقدرة يسوع أن يهرب ويعيش إلى شيخوخة كاملة. ولكنه عرف مرور الفصول، ورغب في ترنيم أنشودة نفسه.

أي رجل يجابه عالماً متسلحاً ولا يفضل أن ينغلب لحظة لكي

يسود على جميع الأجيال؟

والآن أتريدون أن تعرفوا من قتل يسوع بالحقيقة، الرومانيون أم كهنة أورشليم؟

فاعلموا أنّه لا الرومانيون قتلوه، ولا الكهنة، ولكن العالم بأسره وقف على تلك التلة ليعطيه حقّه من الاحترام.

يوناثان
بين زنابق المياه

كنت مع حبيبتي نجذف في أحد الأيام في بحيرة من الماء العذب، وكانت تلال لبنان تحيط بنا.

وكنا نمرّ بالصفصاف الباكي، وكنا نتمتّع بظلاله الجميلة المرتسمة حوالينا.

وفيما أنا أجذف سائراً بالقارب في المياه، أخذت حبيبتي قيثارتها وشرعت تغني هكذا:

أي زهر غير عرائس النيل يعرف المياه والشمس؟

وأي قلب غير قلبها سيعرف الأرض والسماء؟

تأمل يا حبيبي هذه الزهرة الذهبية العائمة بين العلو والعمق كما نسبح أنت وأنا بين المحبة التي كانت منذ الأزل وستظلّ إلى منتهى الدهور.

حرِّك مجذافك يا حبيبي لأضرب على أوتار قيثارتي. لنتبع الصفصاف ولا نهمل زنابق المياه.

في الناصرة شاعر قلبه كقلب عرائس النيل. وقد زار هذا

الشاعر نفس المرأة، وهو يعرف عطشها المتفجر من المياه، ويعرف مجاعتها للشمس في حين أن كل شفاهها شبعانة.

يقولون إنّه يعيش في الجليل.

أما أنا فأقول إنّه يجذف معنا.

أفلا تقدر أن تنظر وجهه يا حبيبي.

أفلا تستطيع أن ترى أنّه حيث ينحني الصفصاف وتجتمع ظلاله في المياه فهناك يتحرك هذا الشاعر كما نتحرك نحن؟

جميل أن نعرف شباب الحياة أيها الحبيب.

جميل أن نعرف أفراحه أيها الحبيب.

أودّ لو أنّ مجاذيفك تظلّ أبداً في يدك، وأنا تظلّ لي قيثارتي ذات الأوتار، حيث تضحك عرائس النيل في الشمس ويغتسل الصفصاف في المياه، ويرافق صوته حركات أوتاري.

حرِّك مجذافك يا حبيبي لأضرب على أوتار قيثارتي.

ففي الناصرة شاعر يعرفنا ويحبنا معاً.

حرِّك مجذافك يا حبيبي لأضرب على أوتار قيثارتي.

حنة من بيت صيدا سنة ٧٣
عمتي في صباها

قد تركتنا عمتي في صباها لتعيش في كوخ قريب من كرم قديم لوالدها.

وكانت تعيش وحدها، وكان أبناء المزارع المجاورة يأتون إليها في أمراضهم، وكانت تشفيهم بالأعشاب الخضراء، وبالجذور والأزهار اليابسة في الشمس.

وكانوا يحسبونها نبية، ولكن فريقاً من الناس دعوها عرّافة ومشعوذة.

وفي أحد الأيام قال لي والدي: خذي هذه الأرغفة من خبز الحنطة إلى أختي، وهذه الجرة من الخمر والسلة من الزبيب.

فوضعت كل هذا على ظهر حمار، وسرت في طريقي حتى بلغت الكرم، ووصلت إلى كوخ عمتي، ففرحت برؤيتي جدّاً.

فيما نحن جلوس في فيء النهار مرّ بنا رجل على الطريق، وحيّا عمّتي قائلاً: نعمت مساء، ولتحلّ عليك بركة الليل.

فنهضت للحال ووقفت أمامه إجلالاً واحتراماً وقالت: ونعمتَ مساء يا سيد جميع الأرواح الصالحة وغالب جميع الأرواح الشريرة.

فنظر إليها الرجل بعينين تذوبان رقةً وسار في طريقه.

أما أنا فضحكت في قلبي، لأني ظننت أن عمتي مجنونة. ولكنني أعرف اليوم أنها لم تكن مجنونة، لأنّني أنا هي التي لم تفهم.

وقد علمت بضحكي، مع أنّه كان مخفيّاً في قلبي.

ولذلك قالت لي بغير غضب: اسمعي يا بنيتي، واصغي وتذكري كلامي، إن هذا الرجل الذي مرّ بنا الآن، كخيال الطير بين الشمس والأرض، سيتغلب على القياصرة وإمبراطورية القياصرة، وسيبارز الثور المجنّح في بلاد الكلدان والسبع ذا الرأس البشري في مصر، وسيقهرهما، وسيحكم العالم بأسره.

ولكن هذه الأرض التي يمشي عليها الآن ستصير إلى لا شيء، وأورشليم الجالسة بغطرسة على تلتها ستطرد مخزية في الدخان أمام ريح الخراب.

وعندما تلفظت بهذه الكلمات تحوّل ضحكي إلى هدوء وسكون فقلت لها: ومن هو هذا الرجل، ومن أي بلاد وأية قبيلة جاء؟ وكيف سيغلب الملوك العظماء، وممالك الملوك العظماء؟

فأجابت: قد ولد في هذه البلاد، ولكننا رأيناه بأحلام حنيننا منذ بداءة السنين، وهو من جميع القبائل، ولذا فإنّه لا يختص بواحدة منها. وسيغلب بكلمة فمه ولهيب روحه.

ثم نهضت فجأة ووقفت كالصخرة الراسخة وقالت:

فليسامحني ملاك الرب على التلفظ بهذه الكلمة أيضاً: وسيُقتل، ويدرج شبابه بالأكفان، ويضجع بصمت إلى جانب قلب الأرض الصامت، وستنوح عليه بنات اليهودية.

ثم رفعت يديها نحو السماء وتكلمت ثانية وقالت: ولكنه سيُقتل بالجسد فقط.

وسينهض بالروح ويخرج بجيوشه من هذه الأرض التي تولد فيها الشمس إلى الأرض التي تُقتل فيها الشمس عند المساء.

وسيكون اسمه مقدماً بين جميع الأمم.

كانت عمتي نبية طاعنة في السنّ عندما قالت هذه الأقوال، أما أنا فكنت فتاة صغيرة، حقلاً لم يفلح بعد، وحجراً لم يوضع بعد في حائط.

بيد أن كل ما نظرته في مرآة فكرها قد حدث أمام عينيّ.

قد نهض يسوع الناصري من الموت. وقاد رجالاً ونساءً إلى بلاد غروب الشمس. والمدينة التي أسلمته للمحاكمة صارت إلى الخراب. وفي قاعة المحاكمة حيث جرت محاكمته وحكم عليه بالموت، ينعق البوم بمراثيه، والليل يذرف ندى قلبه دموعاً على الرخام المتحطم.

وأنا اليوم شيخة حنت السنون ظهرها. وقد مات أهلي وصارت أمتي إلى الفناء.

وقد رأيته مرة واحدة بعد ذلك اليوم، وسمعت صوته ثانية، وكان ذلك على رأس تلة عندما كان يخاطب أصدقاءه وأتباعه.

وعلى رغم شيخوختي الحاضرة ووحدتي المريرة فهو يزورني في أحلامي.

فهو يأتي كملاك أبيض ذي جناحين، فيخرس بنعمته رعب ظلمتي ويرفعني إلى عالم رفيع من الأحلام العلوية.

إنني ما زلت حقلة غير مفلوحة، وثمرة ناضجة لم تسقط عن أمها. وأعظم ما أملكه في هذا العالم هو حرارة الشمس وذكرى ذلك الرجل.

وأنا أعرف أنّه لن يقوم في أمتي ملك ولا نبيّ ولا كاهن كما أنبأت عمتي من قبل.

لأنّنا سنسير من الوجود مع مجاري الأنهار ولن يُعرف اسمنا.

ولكن الذين عبروا مياهه في وسط مجاريها ستظلّ ذكراهم في العالم، لأنّهم عبروا مياهه في وسط مجاريها.

منسى المحامي الأورشليمي
خطاب يسوع وحركاته

نعم، قد سمعته غير مرة متكلماً. فقد كان الكلام حاضراً على شفتيه في كل وقت.

وقد أعجبت به كرجل وليس كزعيم، لأن مواعظه كانت تفوق ذوقي، أو لعلها كانت تفوق أفكاري، لأنّني لا أحبّ أن يعظني أحد.

والذي سحرني فيه هو صوته وإشارته وليس مادة خطابه. نعم قد سحرني ولكنه لم يقنعني، لأنّه كان كثير الإبهام، بعيد الخيال، وافر التلبس، ولذلك لم يصل إلى فكري.

قد عرفت كثيرين من أمثاله، ولكنهم لم يكونوا مثابرين على أعمالهم ثابتين في جهادهم نظيره. فقد سحرت فصاحتهم آذان الناس وأفكارهم الظاهرة، ولكنهم لم يبلغوا إلى هياكل القلوب.

ومن الأسف أن نرى أعداءه يحيطون به ويبالغون في اضطهاده حتى الموت، لأن موته لم يكن ضرورياً. فالعداء الذي أظهره له الناس سيضيف إلى عزمه عزماً، وسيحوّل لطفه إلى قوة قاهرة.

أفليس بالغريب أنّك بمقاومتك لأي إنسان تمنحه شجاعة لم تكن له قبل مقاومتك، وأنّك بتتبعك لخطواته تسلحه بالأجنحة؟

إنّني لا أعرف أعداءه، ولكنني واثق أنهم بخوفهم من رجل لا يعرف الأذية قد أعاروه قوة وجعلوا حياته خطراً عليهم جميعاً.

يفتاح من قيصرية
رجل يكره ذكر يسوع

إن هـذا الرجـل الـذي يمـلأ ذكـره أيـامكم، ويلـزم ظلّـه لياليكم، هو العلقم في فمي. ومع ذلك فأنتم تخدشون أذنّي بأقواله، وتزعجون أفكاري بأعماله.

قد سئمت سماع أقواله وكل ما فعل، حتى أن مجرد ذكر اسمه يزعجني، ومثله اسم بلاده. إنّني لا أريد أن أسمع شيئاً يختصّ به.

لماذا تصنعون نبيّاً من رجل لم يكن سوى خيال؟ لماذا ترون برجاً من تلة الرمل هذه، وتتصورون بحيرة من نفط المطر المتجمعة في الحفرة الصغيرة الناشئة عن نعل الفرس؟

إنّني لا أحتقر الصدى الذي ترجّعه كهوف الأودية، ولا الظلال الطويلة التي يرسمها غروب الشمس. ولكنني لا أريد أن أصغي إلى الأخاديع المترددة في رؤوسكم، ولا أرغب في درس تأثيراتها في عيونكم.

أية كلمة قالها يسوع ولم يقل مثلها هلال؟ وأية حكمة أعلنها ولم يعلنها غملائيل، وما هي نسبة تمتمته لصوت فيلو؟ وما هي الصنوج التي ضرب عليها ولم يضرب عليها قبل ميلاده.

إنّني أصغي إلى الصدى الذي ترجّعه الكهوف إلى الأودية

الصامتة، وأتأمل الظلال الطويلة التي ترسمها شمس الغروب على الأرض، ولكنني لا أطيق أن أرى قلب هذا الرجل يرفع صدى قلب آخر، ولا أقبل أن أسمع خيال العرافين يسمي نفسه نبيّاً.

من يقدر على الكلام بعد أشعيا؟ ومن يجسر على الإنشاد بعد داود؟ وهل تولد الحكمة اليوم بعد أن انضم سليمان إلى آبائه؟ وماذا نقول في أنبيائنا الذين كانت ألسنتهم سيوفاً وشفاههم ألسنة لهيب؟ هل تركوا سنبلة واحدة لهذا اللقّاط في الجليل؟ أو ثمرة ساقطة لهذا المتسوّل القادم من الشمال؟ إنّه لم يجد لنفسه عملاً سوى كسر الخبز الذي خبزه أسلافنا قبله، وسكب الخمرة التي عصرتها أقدامهم المقدسة من عنب القدماء.

إنّني أحترم يد الخزّاف دون الرجل الذي يشتري الخزف. إنّني أكرم الجالسين أمام النول دون الكسالى الذين يلبسون الأثواب.

فمن كان يسوع الناصري هذا؟ ومن هو؟ إنّه رجل لم يجرؤ أن يعيش بأفكاره ولذلك صار إلى العدم الذي هو نهايته.

فالمرجو من فضلكم ألاّ تخدشوا مسامعي بما قال وما فعل. إن قلبي ممتلئ بوحي الأنبياء القدماء، وهذا يكفيني.

يوحنا التلميذ الحبيب في شيخوخته
يسوع الكلمة

ترغبون إليّ أن أتكلم عن يسوع، ولكن كيف أخدع أنشودة الوجد الإلهي في الوجود بهذه القصبة المجوّفة؟

ففي كل مظهر من مظاهر النهار كان يسوع يرى الأب ماثلاً أمامه، فقد رآه في السحب، وفي ظلال الغيوم المارة فوق الأرض، ورأى وجه الأب منعكساً على البرك الهادئة، وآثار وقع قدميه مرتسمة على الرمال، وكثيراً ما كان يغمض عينيه ليتأمل العينين المقدستين.

وكان الليل يخاطبه بصوت الأب، وفي الوحدة كان يسمع ملائكة الرب تناديه. وعندما يطلب الراحة في النوم كان يسمع همس السموات في أحلامه. وكان في الغالب سعيداً في صحبتنا، وكان يدعونا إخوة.

فتأملوا كيف أن الكلمة الأولى عند الأب يدعونا إخوة وما نحن إلا مقاطع حقيرة لم يُتلفظ بها إلا في الأمس القريب.

ولعلكم تسألون: لماذا سميته الكلمة الأولى؟

فاصغوا لأجيبكم: في البدء تحرك الله في الفضاء، ومن حركته التي لا قياس لها ولدت الأرض وفصولها.

ثم تحرك الله ثانية، فانبثت الحياة، فصار حنين الحياة ينشد العلو والعمق، ليكون له الأكثر فالأكثر من ذاته.

ثم تكلم الله، فكان الإنسان من كلماته، وكان الإنسان روحاً مولودة من روح الله.

وعندما تكلم الله هكذا كان المسيح كلمته الأولى، وكانت تلك الكلمة كاملة. وعندما جاء يسوع الناصري إلى العالم سمع العالم به الكلمة الأولى الخارجة من فم الله، وصار صوت تلك الكلمة لحماً ودماً.

إن يسوع الممسوح هو الكلمة الأولى التي خاطب بها الله العالم كما لو أن شجرة من التفاح في بستان تزهر وتعقد قبل بقية الأزهار بيوم واحد، وكان في بستان الله في ذلك اليوم عصر كامل.

نحن جميعاً أبناء العلي وبناته، ولكن الممسوح كان ابنه البكر، الذي قطن في جسد يسوع الناصري، وسار بيننا ورأيناه بعيوننا.

كل هذا أقوله لكم لكي تفهموا ليس فقط بالفكر بل بالروح. إن الفكر يزن ويقيس، ولكن الروح تصل إلى قلب الحياة وتعانق أسرارها، وبزرة الروح لا ولن تموت.

إن الريح قد تهبّ ثم ينقطع هبوبها، والبحر يتمدّد ثم يتقلص، ولكنّ قلب الحياة دائرة هادئة ساكنة والكواكب التي تنيرها ثابتة إلى الأبد.

مانوس من بومبي إلى يوناني
في آلهة الساميين

إن اليهود كجيرانهم الفينيقيين والعرب لا يأذنون لآلهتهم أن تستريح هنيهة على متون الرياح.

فهم كثيرو الاهتمام بآلهتهم، وكثيرو الملاحظة بعضهم على بعض في شأن الصلاة والعبادة والتضحية.

فيما نكون نحن الرومانيين نبني هياكل الرخام البديعة لآلهتنا ترى هؤلاء الشعوب يتجادلون في طبيعة إلههم. نحن في ساعات وجدنا بآلهتنا نغني ونرقص حول مذابح المشتري ونبتون والمريخ والزهرة، أما هم ففي ساعة وجدهم يلبسون المسوح ويغطون رؤوسهم بالرماد، وكثيرون منهم يبكون ويندبون اليوم الذي ولدوا فيه.

أما يسوع، الرجل الذي أعلن الله للناس كائناً يعشق المسرة والفرح، فقد عذبوه وقتلوه.

إن هؤلاء الناس لا يريدون أن يسعدوا مع إله سعيد، فهم لا يعرفون غير آلهة آلامهم.

وأغرب من هذا أن كل أصدقاء يسوع وتلاميذه الذين عرفوا

فرحه وسمعوا ضحكه يضعون صورة لكآبته ويعبدون تلك الصورة.

وفي مثل هذه الصورة لا يرتفعون إلى إلههم، بل ينزلون إلههم إلى مستوى أنفسهم.

وعلى كل فأنا أعتقد أن الفيلسوف يسوع، الذي لم يكن مختلفاً عن سقراط، ستكون له السلطة على أمته، وربما على غيرها من الأمم.

لأننا جميعاً مخلوقات كئيبة ولها شكوكها التافهة. فإذا قال لنا رجل: فلنفرح مع الآلهة، فنحن لا نتردّد في الخضوع لصوته. عجيب كيف أنّ كآبة هذا الرجل قد تحوّلت إلى طقس.

إن هؤلاء الناس يريدون أن يهتدوا إلى أدونيس آخر، إله يُقتل في الغابة، ليحتفلوا بقتله، ويا للأسف كيف يعرضون عن ضحكه!.

ولكن لنعترف، كروماني إلى يوناني: هل نصغي نحن أنفسنا إلى ضحك سقراط في شوارع أثينا! وهل يقدر أحد منّا أن ينسى كأس الشوكران حتى ولو كنّا في مسرح ديونيسيوس؟

أفلا يقف آباؤنا حتى اليوم على زوايا الشوارع ليتحادثوا عن همومهم، ويتمتعوا بلحظة من السعادة بذكرى النهاية الكئيبة التي سار إليها جميع رجالنا العظماء؟.

بيلاطس البنطي
في الطقوس والخرافات الشرقية

قد حدثتني امرأتي عنه غير مرة قبل أن أحضروه إليّ ولكنني لم أهتمّ للأمر.

إن امرأتي كثيرة الأحلام، وهي، كالكثيرات من النساء الرومانيات في طبقتها، قد استسلمت للطقوس والخرافات الشرقية.

ولكن هذه الطقوس كثيرة الخطر على الإمبراطورية، وكلما وجدت مثل هذه الخرافات سبيلاً إلى قلوب نسائنا تضاعفت الأخطار الناتجة عنها والتي قد تؤدي إلى خرابنا.

إن مصر قد صارت إلى الزوال عندما حمل إليها مهاجرو العرب الإله الواحد من صحرائهم. واليونان انقلبت وسقطت إلى الحضيض عندما جاءت إليها عشتروت ووصيفاتها السبع من شواطئ سورية.

أما يسوع هذا فإنّني لم أره قبل أن أسلم إليّ كفاعل إثم، وعدوّ لأمته ولرومة. فقد أحضروه إلى دار المحاكمة رابطين يديه إلى جسده بحبل غليظ.

كنت جالساً في سرادقي، فمشى إليّ بخطوات طويلة ثابتة ثم وقف منتصباً وظلّ رأسه مرتفعاً.

إنّني لا أستطيع أن أتصوّر ما الذي نزل عليّ في تلك اللحظة، ولكنني شعرت فجأة برغبة خفية، مع أنّه لم يكن لها أثر في إرادتي، كانت تدفعني إلى النهوض من سرادقي والسجود أمامه.

نعم قد شعرت كما لو أن القيصر نفسه دخل داري، لأن الواقف أمامي كان أعظم من رومة نفسها.

ولكن هذا الشعور لم يقم في قلبي غير لحظة واحدة، وللحال رأيت أمامي رجلاً بسيطاً تتهمه أمته بالخيانة. وكنت أنا حاكماً وقاضياً عليه.

فسألته عن أمره فلم يجب، ولكنه نظر إليّ، وكان في نظرته كثير من الشفقة، كأنما هو الحاكم والقاضي عليّ.

ثم تصاعد من الخارج صراخ الشعب. أما هو فظلّ صامتاً ينظر إليّ والشفقة ملء عينيه.

فخرجت ووقفت على درجات القصر، وعندما رآني الشعب انقطع عن الصراخ. فقلت لهم: ماذا تريدون من هذا الرجل؟

فصرخوا بصوت واحد: نريد أن نصلبه لأنّه عدونا، وعدة رومة.

وكان قوم منهم يقولون: ألم يقل إنّه ينقض الهيكل؟ بل ألم يدّع المملكة لنفسه؟ إنّنا لا نريد ملكاً غير قيصر.

فتركتهم ورجعت إلى دار المحاكمة أيضاً، فرأيته لا يزال

واقفاً هناك وحده، وما برح رأسه مرتفعاً.

فتذكرت في الحال ما كنت قد سبقت فقرأته لأحد فلاسفة الإغريق: إن الرجل المعتزل هو أقوى الرجال. ففي تلك الدقيقة كان الناصري أعظم من كل أمتّه.

ولم أشعر برأفة عليه، لأنّه كان فوق رأفتي.

فسألته: هل أنت ملك اليهود؟

ولكنه لم يقل كلمة.

فسألته ثانية: ألم تقل إنّك ملك اليهود؟

فنظر إليّ. ثم أجابني بصوت هادئ: أنت نفسك أعلنتني ملكاً. ولعلني لهذا ولدت، ولهذا أتيت لأشهد للحق.

تأملوا رجلاً يتكلم عن الحق في مثل هذا الموقف.

ولكنني تجلدت وقلت بصوت مرتفع لنفسي وله: وما هو الحق وماذا ينفع البريء من الحق ويد منفذ حكم القتل على عنقه؟

حينئذ قال يسوع بقوة: ما من رجل يستطيع أن يحكم العالم إلا بالروح والحقّ.

فسألته قائلاً: وهل أنت من الروح؟

فأجاب: وأنت أيضاً من الروح وإن كنت لا تدري.

وما هي الروح وما هو الحقّ. في الوقت الذي كنت أنا، من أجل سلامة البلاد، وأمته بغيرتها على طقوسها القديمة، نسلم رجلاً بريئاً للموت؟

ما من رجل ولا أمة ولا مملكة تريد أن تتعرج أمام الحقّ السائر في طريقه إلى كمال ذاته.

فقلت له ثانية: هل أنت ملك اليهود؟

فأجاب: أنت نفسك قلت هذا. إنّني قد غلبت العالم قبل هذه الساعة.

وهذه هي العبارة الواحدة التي لم تكن في موضعها من جميع ما قاله، لأن رومة وحدها غلبت العالم.

ولكن أصوات الشعب تصاعدت ثانية، وكان صراخهم يشقّ عنان الفضاء. فنزلت عن عرشي وقلت له: اتبعني.

وخرجت ووقفت ثانية على درجات القصر ووقف هو إلى جانبي.

وعندما رآه الشعب تعالى صراخهم كالرعد القاصف، ولم أسمع من زعاقهم غير هذه الكلمات: أصلبه، أصلبه!

فأسلمته إلى الكهنة الذين أسلموه إليّ وقلت لهم: افعلوا ما شئتم بهذا الصدّيق. وإذا شئتم اصطحبوا جنوداً رومانيين لحراسته.

فأخذوه في الحال، وأمرت أن يكتب على الصليب فوق رأسه: (يسوع الناصري ملك اليهود).

وكان الأجدر بي أن أقول: (يسوع الناصري الملك).

فعرّوا الرجل وجلدوه وصلبوه.

قد كان في طوقي أن أخلصه، ولكن خلاصه كان قد أثار نيران الثورة في البلاد، والحكمة تقضي أبداً على الحاكم في ولاية رومانية أن يتحمل بالصبر جميع الوساوس الدينية في الأمّة المغلوبة.

وأنا أعتقد حتى الساعة أن الرجل كان أعظم من ثائر مقلق، وما أمرت به لم يكن بإرادتي، وإنما فعلته من أجل مصلحة رومة.

وبعد ذلك بقليل من الزمن تركنا سورية، ومن تلك الساعة صارت امرأتي كثيرة الكآبة. وكثيراً ما أرى في هذا البستان الجميل نفسه مأساة كئيبة مرتسمة على وجهها.

وقد أخبروني أنها تتكلم كثيراً عن يسوع لنساء رومة.

فتأملوا كيف أن الرجل الذي أمرت بموته يرجع من عالم الأشباح ويدخل إلى بيتي.

وأنا ما زلت أسال في أعماق نفسي أيضاً وأيضاً: ما هو الحقّ وما هو غير الحق؟

فهل يمكن أن السوريّ يتغلب علينا في هدوء ساعات الليل؟

إن هذا بالحقيقة لا يمكن أن يكون.

لأن رومة يجب أن تتغلب على أضغاث أحلام نسائنا.

برنوماوس في أفسس
في العبيد والمنبوذين

يقول أعداء يسوع إنّه وجّه دعوته للعبيد والمنبوذين، وإنّه كان يثيرهم على أسيادهم، ويقولون إنّه، وهو ابن الطبقة الحقيرة، كان يستغيث بأبناء طبقته، بيد أنّه كان يسعى ليخفي حقيقة أصله.

ولكن فلنبحث في أتباع يسوع وفي زعامته.

ففي أول أمره اختار رفقاء له في عمله بضعة رجال من البلاد الشمالية، وكانوا أحراراً، وكانت أجسادهم قوية وأرواحهم جريئة، وفي العشرين سنة الماضية قد أدهشوا العالم بشجاعتهم في مجابهة الموت بإرادتهم وعدم مبالاتهم.

فهل تعتقدون أن هؤلاء الرجال كانوا عبيداً أو منبوذين؟

وهل يخطر لكم أن أمراء لبنان وأرمينيا المفاخرين بحسبهم ونسبهم قد نسوا مقامهم عندما قبلوا يسوع كنبيّ الله؟.

أم هل تفكرون أن أشراف الرجال والنساء في أنطاكيا وبيزنطية وأثينا ورومة يمكن أن يستهويهم صوت زعيم من العبيد؟

ألا أن الناصري لم يكن قطّ مع عبد ضدّ سيده، ولا مع سيد ضدّ عبده. إنّه لم يكن مع رجل ضدّ رجل آخر.

فقد كان رجلاً أسمى من الناس. والجداول التي جرت في مجاري قوته كنت تترنّم مع الألم ومع القوة في وقت واحد.

فإذا كانت النبالة في الحماية، فإن الناصري هو أنبل نبلاء العالم. وإذا كانت الحرية في الفكر والقول والعمل، فهو أمير الأحرار في كل الأجيال. وإذا كان شرف الأصل في الكبرياء التي لا تخضع إلا معتزة بالمحبة اللطيفة الرؤوف، فهو إذن من جميع الناس أشرفهم أصلاً.

ولا تنسوا أنّه لا يفوز بالإكليل في السباق إلا القوي والسريع، وأن يسوع قد توجّه أصدقاؤه ومحبّوه، كما توجّه أعداؤه على غير علم منهم.

وهو حتى الساعة يقتبل أكاليل النصر من كاهنة أرتاميس في المواضع السرية من هيكلها.

متى
يسوع أمام جدار سجن

في أحد الأمساء مرّ يسوع بسجن في برج داود. وكنّا نمشي وراءه.

غير أنه وقف فجأة ووضع وجنته على حجارة جدار السجن، وشرع يقول:

يا إخوة يومي القديم، إن قلبي يخفق مع قلوبكم وراء الجدران. أودّ لو أنّكم تقدرون أن تتحرروا في حريتي وتمشوا معي ومع رفقائي.

أنتم سجناء، بيد أنّكم لستم وحدكم. فما أكثر السجناء الذين يمشون في الشوارع المفتوحة! ومع أن أجنحتهم غير متكسرة فهم كالطاووس يرفرفون ولكنهم لا يطيرون.

يا إخوة يومي الثاني، قريباً أزوركم في سجونكم وأقدم كتفي لأحمالكم، لأن البريء والمجرم لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وكعظمي الساعد لن ينفصلا.

يا إخوة هذا اليوم، الذي هو يومي، قد سبحتم ضد مجرى أفكارهم فقبضوا عليكم. وهم يقولون إنّني أنا أيضاً أسبح ضد هذا المجرى. ومن يدري؟ فقد أسير إليكم قريباً. فأكون معكم كاسر الشريعة مع كاسري الشريعة.

يا إخوة يومٍ لم يأت بعد ، إن هذه الجدران ستسقط، ومن هذه الحجارة ستصنع أشكال جديدة بيد ذاك الذي مطرقته النور، وأزميله الريح، وستقفون أحراراً في حرية يومي الجديد.

هكذا تكلم يسوع وسار في طريقه، وظلت يده على جدار السجن حتى ترك برج داود.

اندراوس
في المدنسين

إن مرارة الموت هي بالحقيقة أقل مرارة من الحياة بدونه. فقد صمتت الأيام وسكنت عندما أُخرس صوته. لم يبق سوى الصدى يرجّع كلماته إلى ذاكرتي ولكنه لا يرجع صوته إلى أذني.

سمعته مرّة يقول: اذهبوا في إبّان حنينكم إلى الحقول، واجلسوا إلى جانب الزنابق، فتسمعوها تترنم في الشمس، فهي لا تحوك ثياباً لملابسكم، ولا تصنع أخشاباً أو حجارة لمنازلكم، ولكنها تغني مترنّمة.

إن الذي يشتغل في الليل يكمل حاجاتها وندى نعمته يبلل أوراقها.

وأنتم أيضاً أفلا يعني بكم ذلك الذي لا يتعب ولا يستريح؟

وفي مرة أخرى سمعته يقول: طيور السماء قاطبة يحصيها أبوكم كما أن شعور رؤوسكم جميعها محصاة، فلا يسقط طير عند قدمي الصياد، ولا تبيضّ شعرة من رؤوسكم ولا تسقط في هذه الشيخوخة بدون إرادته.

وقال أيضاً: قد سمعت تذمركم في قلوبكم قائلين: يجب أن يكون إلهنا أكثر رحمة معنا نحن أولاد إبراهيم من أولئك الذين لم يعرفوه منذ البدء.

أما أنا فأقول لكم إن رب الكرم الذي يدعو فاعلاً عند الصباح ليشتغل في كرمه، ويدعو فاعلاً آخر عند الغروب، ثم يعطي الأجرة للأخير كما للأول، إن مثل هذا الرجل مبرّر بالحقيقة في عمله. أفلا يدفع من كيسه بكمال إرادته؟

هكذا سيفتح أبي بوابة قصره لمن يقرع عليها من الأمم، كما يفتحها لمن يقرع عليها منكم، لأن أذنه تصغي إلى النغم الجديد بنفس المحبة التي تشعر بها عند سماع الأغنية التي طالما سمعها، وهو يرحب بالنغم الجديد ترحيباً خاصّ لأنّه أصغر وتر في قيثارة قلبه.

وفي مرة أخرى سمعته يقول: تذكروا هذا: اللصّ هو رجل محتاج، والكذاب هو رجل خائف، والصياد الذي يصطاده حارس ليلكم قد اصطاده أيضاً حارس ظلمة نفسه.

أريد أن تشفقوا على جميع هؤلاء.

فإذا قصدوا منازلكم فافتحوا لهم الأبواب وأجلسوهم إلى موائدكم، وإذا لم تقبلوهم فإنّكم لن تكونوا مبررين من أي عمل يعملونه.

وفي أحد الأيام تبعته إلى ساحل المدينة في أورشليم، كما تبعه كثيرون غيري، فقص علينا مثل الابن الشاطر، ومثل التاجر الذي باع كلّ ما كان له ليشتري درّة.

وفيما كان يخاطبنا أحضر الفريسيون إلى وسط الجمع امرأة كانوا يسمونها زانية، فأحاطوا بيسوع وقالوا له: قد دنست نذر زواجها، وأُمسكت بالفعل الشنيع.

فنظر إليها ووضع يده على جبينها وتأمل عينيها مليّاً.

ثم التفت إلى الرجال الذين أحضروها إليه، وأنعم نظره في وجوههم، وانحنى، وشرع يكتب بإصبعه على الأرض.

فكتب اسم كل رجل، وكتب إلى جانب كل اسم الخطيئة التي ارتكبها صاحب الاسم.

وفيما كان مكبّاً على الكتابة هربوا من حضرته يجرون أذيال الفضيحة.

وقبل أن فرغ من كتابته لم يبقَ أمامه أحد إلا نحن والمرأة.

فنظر إلى عينيها ثانية وقال لها: إنّكِ قد أحببتِ كثيراً، أما الذين أحضروك إلى هنا فإنهم أحبوا قليلاً، ولكنهم حملوك إليّ كأحبولة لاحتبالي.

فانصرفي الآن بسلام.

لم يبق منهم أحد ليدينك، فإذا رغبت في أن تكوني حكيمة كما أنت محبة، فاطلبيني، فإن ابن الإنسان لا يدينك.

وقد عجبت آنئذ هل كان قد قال هذا لها، لأنّه هو نفسه لم يكن بلا خطيئة.

ولكنني منذ ذلك اليوم وأنا أتأمل وأدرس، وها أنا أعرف الآن أن نقيّ القلب وحده يغفر للإنسان عطشه الذي يقوده إلى مياه آسنة.

والثابت الخطى وحده يستطيع أن يمدّ يده لمن يعثر في طريقه.

وأيضاً وأيضاً يقول: إن مرارة الموت هي بالحقيقة أقل مرارة من الحياة بدونه.

رجل غني في المقتنيات

كان يسوع يتكلم بالسوء على الأغنياء. وقد سألته في أحد الأيام قائلاً: يا سيدي، ماذا أفعل لأحصل على سلامة الروح؟

فأمرني أن أعطي أموالي للفقراء وأتبعه.

فهو لا يملك شيئاً، ولذلك لم يعرف ما في المقتنيات من التأمين على الحياة والحرية الشخصية، والاحترام الداخلي والخارجي.

في بيتي مائة وأربعون عبداً وخادماً، فالبعض يشتغلون في غاباتي والبعض يسوقون مراكبي إلى الجزائر البعيدة.

فلو أنّني سمعت منه وأعطيت أملاكي للفقراء فماذا كان يحلّ بعبيدي وخدامي وأزواجهم وأولادهم؟ إنّهم ولا شكّ كانوا يصيرون متسوّلين نظيره على بوابة المدينة وفي رواق الهيكل.

نعم إن ذلك الرجل الصالح لم يسبر غور السرّ المحيط بالمقتنيات، ولما كان هو وأتباعه يعيشون على عطايا الآخرين فقد ظنّ أن جميع الناس يجب أن يعيشوا مثله.

وإليكم هذا اللغز الذي يناقض ذاته: هل يجدر بالأغنياء أن يعطوا ثروتهم للفقراء الذين يجب أن يكون لهم كأس الغني ورغيفه قبل أن يرحبوا به على مائدتهم ؟

وهل يجدر بصاحب البرج أن يصير مضيفاً لزبائنه قبل أن يدعو نفسه سيد أرضه ؟

ألا أن النملة التي تخزن طعاماً للشتاء هي أحكم من الجنادب التي تترنّم يوماً بأناشيدها وتتألم يوماً من مجاعتها.

في السبت الماضي قال أحد أتباعه في ساحة المدينة: على عتبة السماء حيث يضع يسوع حذاءه لا يستحق رجل غيره أن يضع رأسه.

ولكنني أسأل هذا: على عتبة أي بيت استطاع ذلك الهائم البسيط القلب أن يترك حذاءه ؟ فإنّه لم يكن له بيت ولا عتبة وفي أكثر الأحيان كان يمشي بغير حذاء.

يوحنا في بطمس
يسوع الرؤوف

إنّني أود أن أتكلم عنه مرة ثانية.

ومع أن الله قد حبس عني الكلام فقد أعطاني الصوت والشفتين المحترقتين.

وعلى رغم عدم استحقاقي للكلمة الكاملة فأنا أدعو قلبي إلى شفتي.

قد أحبني يسوع، ولم أعلم لماذا أحبني.

أما أنا فقد أحببته لأنّه رفع روحي إلى أعالٍ فوق قامتي، وأنزلها إلى أعماقٍ لا قِبَل لي على سبر غورها.

المحبة سر مقدس.

والمحبون الحقيقيون لن يجدوا ألفاظاً للتعبير عن محبتهم.

أما الذين لا يحبون فالمحبة في عقيدتهم سخرية قاسية.

قد دعاني يسوع كما دعا أخي ونحن نشتغل في الحقل.

وكنت آنئذ شابّا ولم تعرف أذني غير صوت الفجر.

ولكن صوته وضع حداً نهائياً لعملي وبداءة لعهد وجدي وافتتاني.

فلم يبقَ أمامي بعد ذلك إلاّ المشي في الشمس وعبادة جمال الساعة.

هل تستطيع أن تتصور جلالاً يحول لطفه دون ظهوره؟ أو جمالاً يحول لنوره دون رؤيته؟.

وفي ذلك المساء رجعت إلى بيت أبي لأحمل ثوبي الآخر.

وهنالك قلت لأمي: إن يسوع الناصري يرغب في أن يضمني إلى جماعته.

فقالت: سر في طريقه يا بني كما سار أخوك.

قد دعاني عبيره وأمرني، ولكن ليحررني فقط.

لأن المحبّة مضيفة جوّادة لضيوفها، ولكن بيتها سراب وهزء لغير المدعوين.

ترغبون إليّ الآن أن أوضح لكم عجائب يسوع.

فنحن جميعاً إشارة عجائبية للزمان، وربنا ومعلمنا هو المركز الرئيسي لذلك الزمان.

ولكنه لم يشأ أن يعرف أحد بإشارته.

فقد سمعته يقول للمفلوج: انهض واذهب إلى بيتك ولكن احذر أن تقول للكاهن إنّني جعلتك صحيحاً.

ولم يكن فكر يسوع مع المقعدين، بل كان بالأحرى مع الأقوياء والمنتصبين.

فقد طلب فكره غيره من الأفكار وأمسك بها، وزارت روحه الكاملة غيرها من الأرواح.

وبهذا العمل غيرت روحه تلك الأفكار وتلك الأرواح.

وقد بدا هذا العمل أعجوبة خارقة للناس. ولكنه كان في نظر ربنا ومعلمنا بسيطاً كتنفس الهواء في كل يوم.



والآن فلأتكلم عن أمور أخرى.

كنت أمشي في أحد الأيام في حقل، وكنّا وحيدين جائعين، فأتينا إلى شجرة تفاح بري.

ولم يكن على أغصان الشجرة سوى تفاحتين فقط.

فمسك يسوع جذع الشجرة بيده وهزها فسقطت التفاحتان.

فالتقطهما معاً وأعطاني واحدة منهما، وأمسك التفاحة الأخرى بيده.

وإذ كنت جائعاً جدّاً أكلت تفاحتي بسرعة شديدة.

ثم نظرت إليه فوجدت التفاحة ما برحت في يده.

فأعطاني إياها وقال لي: كل هذه أيضاً.

فأخذت التفاحة وفي قلة حياء مجاعتي أكلتها.

وفيما نحن نمشي نظرت إلى وجهه.

ولكن كيف أستطيع أن أخبركم بما رأيت؟

رأيت ليلاً تحترق الشموع في فضائه، وحلماً لا تصل إليه أحلامنا، ظهيرة يفرح فيها جميع الرعاة ويطربون لرؤية قطعانهم راعية أمامهم، مساءً هادئاً وسكوناً عجيباً وبيتاً تلجأ الروح إليه، ونوماً هادئاً وحلماً لذيذاً.

كل هذا رأيته في وجهه.

فقد أعطاني التفاحتين، وعرفت أنّه كان جائعاً مثلي.

ولكنني أعرف اليوم أنّه بإعطائهما لي قد شبع واكتفى. لأنه هو نفسه أكل من أثمار أخرى لشجرة أخرى.

أود أن أخبركم أكثر من هذا عنه، ولكن كيف أستطيع ذلك؟

فإن المحبة متى اتسعت صعب التعبير عنها بالكلام. والذاكرة إذا كثرت أحمالها سارت تفتش عن الأعماق الصامتة.

بطرس
في الجار

قال ربي ومعلمي مرة في كفرناحوم:

إن جاركم هو ذاتكم الثانية تقطن وراء الجدار. وبالفهم تسقط جميع الجدران.

ومن يدري إذا لم يكن جاركم هو ذاتكم الفضلى لابسة جسداً آخر؟ فانتبهوا أن تحبوه كما تحبون ذواتكم.

وهو أيضاً مظهر للعلي القدير، الذي لا تعرفونه.

إن جاركم هو حقل يسير فيه ربيع آمالكم بأثوابه الخضراء ويحلم فيه شتاؤكم بالأعالي المجللة بالثلج.

إن جاركم هو مرآة ترون فيها صورتكم وقد جملها فرح أنتم أنفسكم لم تعلموا به، وكآبة أنتم أنفسكم لم تشتركوا بها.

فأحبوا جاركم كما أحببتكم أنا.

فسألته قائلاً: كيف أستطيع أن أحبّ جاراً لا يحبني، وهو يحسدني ويطمع في مالي، بل كثيراً ما يسرق مقتنياتي؟

فأجاب وقال: إذا كنت تفلح وكان خادمك يزرع البذار

وراءك، فهل تقف وتنظر إلى الوراء لتطرد زرزوراً يلتقط بضع حبات من بذارك ليغذي بها جوعه؟ فإذا فعلت هذا فأنت لا تستحق ثروة حصادك.

وعندما قال هذا خجلت من نفسي وجلست صامتاً. بيد أنّني لم أكن خائفاً لأن ابتسامة يسوع لم تفارقه.

إسكاف في أورشليم
على الحياد

إنّني لم أحبه، ولكنني في الوقت نفسه لم أبغضه.

ولم أصغ إليه لأسمع أقواله، بل بالأحرى لأسمع رنّة صوته لأن صوته كان يطربني.

وكل ما قاله كان مبهماً في فكري، ولكن موسيقى صوته كانت صريحة في أذني.

بالحقيقة إنّني لولا ما سمعته من الناس عن تعاليمه لما كنت قادراً أن أميّز هل كان يسوع مع اليهودية أو ضدها.

سوسان الناصرية جارة مريم
في شباب يسوع ورجولته

قد عرفت مريم أم يسوع قبل أن صارت امـرأة ليوسـف النجـار، وكنّا معاً في ذلك الوقت غير متزوجتين.

في تلك الأيام كانت مريم ترى رؤى وتسمع أصواتاً، وتتكلم عن الخدام السماويين الذين يزورونها في أحلامها.

وكان أهل الناصرة شديدي الاهتمام بها وكانوا يلاحظونها في ذهابها وإيابها. وكانوا ينظرون إليها بعيون لطيفة، لأن جبهتها كانت رفيعة وخطواتها كانت سديدة.

ولكن البعض قالوا إنّها مجنونة. وقد قالوا هذا لأنّها كانت تتصرّف بحرية تامّة في جميع أعمالها.

أما أنا فقد كنت أنظر إليها نظرتي إلى شيخة طاعنة في السنّ مع أنها فتاة في ميعة الشباب، لأنّني رأيت حصاداً في أزهارها وأثماراً يانعة في ربيعها.

فقد وُلدت ونشأت بيننا، غير أنها كانت في قريتنا كأنها غريبة من بلاد الشمال. وكانت في عينيها دائماً دهشة الغريب الذي لم يتعرف إلى وجوهنا بعد.

وكانت لها نفس العجرفة التي عرفت بها ميريام القديمة التي خرجت مع شقيقيها من النيل إلى البرية.

ثم خُطبت مريم ليوسف النجار.

وعندما حبلت مريم يسوع كانت تتمشى بين التلال وترجع عند المساء وفي عينيها جمال فتّان وألم عميق.

وعندما وُلد يسوع أخبرتني إحدى الصديقات أن مريم قالت لأمها: أنا لست إلا شجرة لم تقلم أغصانها بعد. فانظري أنت في هذه الثمرة. وقد سمعت هذا القول مرتا القابلة.

وبعد ثلاثة أيام ذهبت لزيارتها، فإذا هي منذهلة العينين مرتجفة الصدر، وقد طوقت بكرها بذراعيها كما تطوّق الصدفة درّتها الثمينة.

جميعنا أحببنا ابن مريم وكنّا نراقبه بعيون المحبة لأنّه كان ممتلئاً بقوة الحياة والنماء.

مرّت الفصول وتقضت الأقمار فصار الطفل صبيّاً كثير الضحك واللهو. ولم يعرف أحد منّا ماذا سيصير إليه هذا الصبي لأنّه كان يبدو للجميع كأنّه من غير جنسنا. ولم يجسر أحد على توبيخه قطّ مع أنّه كان كثير المغامرة وافر الشجاعة.

أقول إنّه كان يلعب مع الأولاد أترابه، ولكنني لا أقدر أن أقول إنهم كانوا يلعبون معه.

وعندما كان في الثانية عشرة من العمر قاد أحد العميان إلى عبر الجدول حتى أوصله إلى الطريق العامة.

أما الأعمى فلكي يظهر له شكره سأله قائلاً: من أنت أيها الصبي الصغير؟

فأجابه: أنا لست صبيّاً صغيراً. أنا يسوع.

فقال له الأعمى: ومن هو أبوك؟

فأجاب: الرب هو أبي.

فضحك الأعمى وقال: بالصواب أجبت يا بني.

ولكن من هي أمك؟

فأجاب يسوع: أنا لست بُنيّاً لك. وأمي هي الأرض.

فقال الأعمى: فانظر إذن، فقد قادني ابن الله والأرض إلى عبر الجدول.

فأجاب يسوع: سأقودك حيث شئت، وسترافق عيناي قدميك. وكان ينمو كالنخلة الثمينة في بساتيننا.

وعندما بلغ التاسعة عشرة صار جميلاً كالأيل، وكانت عيناه كالعسل ممتلئتين من دهشة النهار.

وكان على فمه عطش قطيع الصحراء للبحيرة.

فهو لا يمشي في الحقول إلا وحده وعيوننا وراءه، ومثلها عيون جميع الصبايا في الناصرة، ولكننا كنّا نخجل أمام جلال عينيه.

ومع أن المحبة خجولة أبداً من الجمال فالجمال كان وما يزال مطمح أنظار المحبة.

ثم دعته الفصول ليتكلم في بساتين الجليل.

وكثيراً ما كانت مريم تتبعه لتصغي لأقواله وتسمع صوت قلبها، ولكن عندما كان يذهب مع محبيه إلى أورشليم لم تكن تذهب معهم.

لأنّنا نحن أبناء الشمال يهزأ بنا في الغالب في شوارع أورشليم حتى ولو كنّا ذاهبين لنقدم تقدماتنا في الهيكل.

وكانت مريم فخورة بهذا المقدار حتى إنها لم تشأ أن تسلم إباءها لسخرية أهل الجنوب.

وقد زار يسوع بلاداً أخرى في الشرق وفي الغرب ومع أنّنا لم نعرف البلاد التي زارها ولكن قلوبنا كانت تتبعه.

ولكن مريم كانت تجلس على عتبتها تنتظره، وفي كل مساء كانت تحدق بعينيها إلى الطريق تفتش عن رجوعه إلى بيته.

بيد أنها عند رجوعه تأتي إلينا قائلة: إنّه أعظم من أن يكون ابناً لي وفصاحته تسمو على إدراك قلبي الصامت، فكيف أدّعيه لنفسي؟

ويلوح لي أن مريم لم تستطع أن تصدق أن السهل قد ولد الجبل، وفي بياض قلبها لم تنظر إلى حرف الجبل هو الطريق إلى قنّته.

فقد عرفت الرجل، ولكن بما أنّه كان ابناً لها لم تجرؤ أن تعرفه.

وفي أحد الأيام ذهب يسوع إلى البحيرة ليكون مع أصدقائه الصيادين، فقالت لي مريم: من هو الإنسان إلا هذا الكائن القلق الناهض من الأرض، والحنين المتسامي إلى النجوم؟

إن ابني هو حنين بعيد. بل هو جميعنا متسامين بحنيننا إلى النجوم.

هل قلت إنّه ابني؟ فليسامحني الرب. ولكن قلبي يدلني على أنّني أمه.

إنّه صعب عليّ جداً أن أخبركم أكثر من هذا عن مريم وابنها. ولكن، وإن طلع الحسك في حلقي، ووصلت كلماتي إليكم وصول الكسيح الذي يدب على العصا، فأنا أودّ أن أقصّ عليكم ما رأيته وسمعته.

كانت السنة فخورة بشبابها، وكانت شقائق النعمان تزين رؤوس التلال عندما دعا يسوع تلاميذه وقال لهم: تعالوا معي إلى أورشليم وشاهدوا ذبح الخروف للفصح.

وفي ذلك اليوم بعينه جاءت مريم إلى بابي وقالت: إنّه ذاهب إلى المدينة المقدسة، فهل لك أن تذهبي وتتبعيه معي ومع بقية النساء؟

وللحال سرنا على تلك الطريق الطويلة وراء مريم وابنها حتى وصلنا إلى أورشليم، وهناك حيّتنا جماعة من الرجال والنساء على بوابة المدينة، لأن مجيئه كان قد أعلن من قبل لأصحابه وأحبابه، ولكن يسوع ترك المدينة في تلك الليلة مع أصحابه.

وقد أخبرونا أنّه ذهب إلى بيت عنيا.

فأقامت مريم معنا في الفندق تنتظر رجوعه.

وفي مساء الخميس التالي ألقوا القبض عليه خارج الأسوار، وسجنوه.

وعندما سمعنا أنّه سجين لم تنطق مريم بكلمة قطّ، ولكن ظهر للحال في عينيها تحقيق خفي لذلك الوعد بالألم والفرح الذي رأيناه عندما كانت عروساً في الناصرة.

إنها لم تبكِ، ولكنها كانت تمشي بيننا فقط كأنّها روح أمّ لا تريد أن تنتحب على روح ابنها.

فجلسنا منحنيات على الأرض، أما هي فكانت منتصبة وهي تروح وتجيء على أرض الغرفة.

وكانت تقف بين الهنيهة والهنيهة أمام النافذة وتحدق بنظرها إلى الشرق ثم تسرح شعرها بأصابع يديها.

وعند الفجر بقيت واقفة بيننا، كأنها علم يخفق في قفر لا جحافل فيه.

قد بكينا لأنّنا عرفنا ما يحمله الغد لابنها، أما هي فإنها لم تبكِ لأنها عرفت أيضاً ما سيصيبه.

كانت عظامها من صلب النحاس وقوتها من الدردار القديم.

وكانت عيناها كالسماء اتساعاً وشجاعة.

عمرك الله، هل رأيت قبّرة تتشد في حين أن عشها يحترق في الهواء؟

وهل رأيت امرأة تفيض كآبتها على دموعها، أو قلباً مجروحاً يرتفع حتى يسمو على ألمه؟

إنّك لم ترَ مثل هذه المرأة لأنّك لم تقف في حضرة مريم ولم تحتضنك بعد الآلام غير المنظورة.

في تلك الساعة الهادئة التي كانت حوافر الصمت تضرب فيها على صدور الأرقين، دخل يوحنا، الابن الأصغر لزبدى، وقال: أيتها الأم مريم، إن يسوع ذاهب، فهلمّي نتبعه.

فوضعت مريم يدها على كتف يوحنا وخرجت معه، ونحن تبعناهما.

وعندما وصلنا إلى برج داود رأينا يسوع حاملاً صليبه وكان جمع غفير حواليه.

وكان معه رجلان آخران يحمل كلّ منهما صليبه.

وكان رأس مريم مرتفعاً، وكانت تمشي معنا وراء ابنها، وكانت خطواتها ثابتة.

وقد مشت وراءها صهيون وروما، بل العالم أجمع، لينتقم لنفسه من الرجل الحر الواحد.

وعندما وصل إلى التلة رفعوه على الصليب.

فنظرتُ إلى مريم، فلم يكن وجهها وجه امرأة حزينة، بل كان أشبه بمنظر الأرض المثمرة التي تلد بغير انقطاع وتقبرهم بلا ملل.

ثم عرضت صورة تذكارات صبوته أمام عينيها، فقالت بصوت عظيم: يا ابني الذي ليس ابناً لي، أيها الرجل الذي زار بطني مرة، إنّني أفاخر بقوتك. إنّني أعرف أن كل نقطة من الدم الجاري من يديك ستكون ينبوعاً تتكون منه أنهار أمة بأسرها.

أنت تموت الآن في هذه العاصفة كما مات قلبي مرة في غروب الشمس، ولذلك لم أحزن عليك.

في تلك اللحظة رغبت في تغطية وجهي بوشاحي لأهرب راجعة إلى الشمال. ولكنني سمعت فجأة مريم تقول: يا ابني الذي ليس ابناً لي، ما الذي قلته للرجل الذي على يمينك فجعله سعيداً في آلامه؟ إن ظلّ الموت ضعيف على وجهه، وهو لا يستطيع أن يحول عينيه عنك.

أنت تبتسم لي الآن، وهذه الابتسامة تدلني على أنّك قد غلبت العالم. فنظر يسوع إلى أمه وقال لها: يا مريم، كوني منذ الساعة أمّاً ليوحنا.

وقال ليوحنا: كن ابناً محبّاً لهذه المرأة. اذهب إلى بيتها وليعبر ظللك تلك العتبة التي طالما جلست عليها. أصنع هذا لذكري.

فرفعت مريم يمينها نحوه، فبدت كأنها شجرة ذات غصن واحد، ثم صرخت قائلة: يا ابني، الذي ليس ابناً لي، إذا كان هذا من الله فليعطنا الله صبراً ومعرفة لحقيقته. وإذا كان من الإنسان فليسامحه الله إلى الأبد.

إذا كان هذا من الله فإن ثلج لبنان سيكون لك كفناً، وإذا كان من هؤلاء الكهنة والجنود فقط فإن لي هذا الثوب لعريتك.

يا ابني، الذي ليس ابناً لي، إن ما يبنيه الله ههنا لا يمكن أن يزول، وكل ما يهدمه الإنسان سيظل مبنيّاً، ولكن في نظر أسمى من نظر الإنسان.

في تلك الدقيقة أسلمته السماوات للأرض صوتاً ونسمة حيّة.

ومريم أيضاً أسلمته للإنسان جرحاً وبلسماً.

وقالت مريم: انظروا الآن فقد مضى. قد انتهت المعركة وأعطى الكوكب نوره. قد وصلت السفينة إلى الميناء. والذي اتَّكأ فيما مضى على قلبي يتموج الآن في الفضاء.

وإذ دنونا منها قالت لنا: إنّه حتى في الموت نفسه يبتسم. فقد غلب العالم. ويسرّني جداً أن أكون أمّاً للغالب.

ثم رجعت مريم إلى أورشليم متكئة على ذراع يوحنا التلميذ الصغير.

وكانت امرأة قد تحققت آمالها.

❖❖

وعندما وصلنا إلى بوابة المدينة تأملت وجهها فأخذ الدهش بمجامع قلبي. لأن رأس يسوع في ذلك اليوم كان أرفع من رؤوس جميع الرجال، ومع ذلك فإن رأس مريم لم يكن أقل منه ارتفاعاً.

حدث كل هذا في فصل الربيع.

ونحن اليوم في فصل الخريف. وقد رجعت مريم أم يسوع إلى بيتها وهي تقطن فيه وحدها.

❖❖

منذ سنتين كان قلبي جامداً كالصخرة في صدري، لأن ابني تركني وسافر إلى صور يطلب سفينة لأنّه يريد أن يكون ملاحاً.

وقد قال لي إنّه لن يرجع إليّ.

وفي أحد الأمساء سرت إلى مريم.

وعندما دخلت إلى بيتها كانت جالسة أمام نولها، وهي لا تلمسه لأنّها كانت تتأمل السماء البعيدة وراء الناصرة.

فقلت لها: السلام عليك يا مريم.

فمدت يدها إليّ وقالت: هلمّي فاجلسي إلى جانبي نراقب الشمس وهي تسكب دمها على التلال.

فجلست بجانبها على المقعد، وكنّا نتأمل الغروب من خلال النافذة. وبعد هنيهة قالت مريم: إنّني لا أدري من يصلب الشمس في هذا المساء.

فقلت لها: قد جئتك أطلب تعزية. إن ابني قد تركني وذهب إلى البحر، وأنا وحدي في البيت في عبر الطريق.

فقالت مريم: إنّني أود أن أعزّيك، ولكن أنّى لي ذلك؟

فقلت: إذا تكلمت عن ابنك فقط فإنّني أتعزى.

فتبسمت مريم ووضعت يدها على كتفي وقالت: إنّني سأتكلم عنه، لأن ما يعزيك إنما يحمل لي منتهى التعزية.

وأخذت تحدّثني ملياً عن يسوع، وعن جميع ما كان منذ البدء.

ويلوح لي أنها لم تفارق ابنها في كل حديثها.

فقد قالت لي: إن ابني هو ملاح كابنك، فلماذا لا تسلمين ابنك لحنان الأمواج كما سلمت ابني؟

ستبقى المرأة أبداً رحماً ومهداً، بيد أنها لن تكون رمساً. نحن نموت لكي نعطي حياة للحياة، كما أن أصابعنا تحوك من الخيوط ثوباً لن نلبسه أبداً.

ونحن نلقي الشبكة لنمسك السمك الذي لن نأكله.

لأجل هذا نكتئب ونحزن، ولكن في جميع هذا فرحنا وغبطتنا.

بهذا حدّثتني مريم.

فتركتها ورجعت إلى بيتي، ومع أنّ نور النهار كان قد ولّى فقد جلست إلى نولي أحوك القماش الذي لن ألبسه.

يوسف الملقب بيوستوس

يسوع الهائم

يقولون إنّه كان دنيئاً، وثمرة خاملة لزرع خامل، ورجلاً فظّاً غليظاً.

ويقولون إن الريح فقط كانت تمشط شعره، وإن المطر فقط كان يغسل وجهه وثيابه.

ويقولون إنّه كان مجنوناً وينسبون أقواله للشياطين.

ولكن انظروا أيها الناس، إن هذا الرجل الذي احتقروه قد استنهد أعداءه. ولن ينقطع صوت مناهدته، لأنّه ما من بشر يستطيع أن يقف في وجهه.

قد أنشد أنشودة ولا يستطيع أحد أن يقيّد حريتها. فهي ترفرف بأجنحتها من جيل إلى جيل، وتنهض من محيط إلى محيط حاملة ذكرى الشفتين اللتين ولدت في أحضانهما والأذنين اللتين كانتا لها مهداً.

قد كان غريباً. نعم نعم كان غريباً هائماً في طريقه إلى المقام المقدس، وكان زائراً يقرع أبوابنا، وضيفاً من بلاد بعيدة.

بيد أنه لم يجد بيننا مضيفاً عطوفاً، ولذلك رجع إلى المكان الذي أعدّ له منذ إنشاء العالم.

فيلبس
وعندما ماتت الإنسانية كلها

عندما مات حبيبنا ماتت الإنسانية كلها، وسكن كل ما في الفضاء وامتقع لونه، فالشرق أظلم، وهبت من أعماقه عاصفة هوجاء اجتاحت كلّ الأرض. وكانت عيون السماء تنفتح وتنطبق، وتساقطت الأمطار أنهاراً فجرفت الدم الجاري من يديه ومن قدميه.

وأنا أيضاً متّ مع المائتين، وفي أعماق غفلتي سمعته يتكلم ويقول: يا أبتاه أغفر لهم، لأنّهم لا يدرون ما يفعلون.

وقد طلب صوته روحي المختنقة فأرجعني إلى الشاطئ ثانية.

ففتحت عينيّ ورأيت جسده الناصع البياض معلقاً أمام السحاب. وقد تجسدت الكلمات التي سمعتها منه في أعماق قلبي فصرت رجلاً جديداً. ولم أعرف طعم الكآبة فيما بعد.

فمن يحزن على البحر الذي يحسر القناع عن وجهه، أو الجبل الذي يضحك في الشمس؟

هل خطر على قلب بشرٍ، وقد طعن ذلك القلب، أن يقول مثل هذه الكلمات؟

وأي قاض من قضاة البشر صفح عن قضائه؟ وهل سبق للمحبة في كلّ أدوارها أن تغلبت على البغض بمثل هذه القوة الواثقة بذاتها؟

وهل سمعت الإنسانيّة صوتاً كصوت هذا البوق المدوّي بين الأرض والسماء؟

هل سُمع من قبل أن القتيل يسترحم لقاتله؟ أو أن الشهاب يوقف سيره من أجل الخلد؟

أجل، ستنقضي الفصول وستطوى السنون قبل أن يزول من الأرض أثر هذه الكلمات: يا أبتاه اغفر لهم، لأنّهم لا يدرون ما يفعلون.

وأنا وأنت وإن ولدنا المرة بعد المرة، فإنّنا لن ننسى هذه الكلمات. وها أنا الآن أمضي إلى بيتي لأقف متسولاً رفيع الرأس على بابه.

برباره اليمونية
يسوع اللجوج

كان يسوع صبوراً على الحمقى والبلداء، كما ينتظر الشتاء الربيع.

كان صبوراً كالجبل في الريح.

فكان يجاوب بلطف على جميع المسائل البليدة التي وجّهها إليه أعداؤه.

وكثيراً ما كان يصمت أمام المماحكة والمغالطة، لأنّه كان قوّياً وفي منال القوي أن يكون طويل الأناة.

ولكن يسوع كان أيضاً قليل الصبر.

فإنّه لم يطق صبراً على المرائين.

ولم يسلم سلاحه لمشعوذي الكلام والخبثاء.

ولم يكن في طوق إنسان أن يسود عليه.

إنّه لم يصبر على الذين أنكروا النور لأنّهم كانوا يعيشون في الظلام، والذين طلبوا علامات في السماء وكان الأجدر بهم أن يطلبوها في قلوبهم.

ولم يكن صبوراً على الذين وزنوا النهار وقاسوا السماء قبل أن أسلموا أحلامهم للفجر والمساء.

كان يسوع صبوراً.

ولكن كان أقل الناس صبراً.

فهو يريد منك أن تحوك الثوب ولو أنفقت أعواماً بين النول وخيوط الكتان.

ولكن لن يأذن لأحد أن يمزّق قيراطاً واحداً من النسيج الذي تمّت حياكته.

زوجة بيلاطس إلى امرأة رومانية
المحبة والقوة

كنت أمشي مع وصيفاتي في الغابات خارج أورشليم عندما رأيته مع بضعة رجال ونساء جالسين حوله، وكان يخاطبهم بلغة لم أفهم سوى نصفها.

ولكن الإنسان لا يحتاج إلى لغة لكي يرى عموداً من النور أو جبلاً من البلور، فالقلب يعرف ما لا ينطق به اللسان وما لا تسمعه الآذان.

كان يخاطب أصحابه عن المحبة والقوّة. إنّني أعرف أنّه تكلّم عن المحبة لأنّه كان في صوته لحن شجيّ، وأعرف أنّه تكلم عن القوة لأن جيوشاً جرارة كانت تسير مع إشارته. وكان لطيفاً، وأنا لا أعتقد أن زوجي نفسه يستطيع أن يتكلم بالسلطان الذي تكلم به هذا الإنسان.

فاتضعت روحي أمام نظرته، وأدركت وعندما رآني مارّة توقّف عن الكلام هنيهة ونظر إليّ بلطف في أعماق نفسي أنّني مررت بإله.

وبعد ذلك اليوم كانت صورته تزورني في وحدتي عندما لم يزرني أحد من الرجال أو النساء، وكانت عيناه تنفذان إلى أسرار نفسي وأنا مغمضة العينين، وكان صوته سيّداً في هدوء لياليّ.

إنّني سجينة سحر هذا الرجل إلى الأبد، ولكن السلامة في آلامي، والحرية في دموعي.

أنت لم تنظري ذلك الرجل، يا صديقتي، ولن تنظريه.

فقد اختفى عن حواسنا، ولكن هو أقرب إليّ اليوم من جميع الرجال.

رجل خارج أورشليم
يهوذا الاسخريوطي

جاء يهوذا إلى بيتي في ليلة الجمعة العظيمة في مساء عيد الفصح وقرع بابي بعنف شديد.

وعندما دخل نظرت إليه فإذا وجهه كالرماد. وكانت يداه ترتجفان كالأغصان اليابسة في الريح، وكانت ثيابه مبللة كأنّه خارج من النهر، لأنّه في ذلك المساء حدثت عواصف عظيمة.

فنظر إليّ فبانت عيناه كالكهوف المظلمة الممتلئة بالدم.

فقال: قد أسلمت يسوع الناصري إلى أعدائه وأعدائي.

ثم فرك يديه وقال: قد أعلن يسوع أنّه سيقهر جميع أعدائه وأعداء أمتنا، فآمنت وتبعته.

وعندما دعانا إليه وعدنا بمملكة قديرة وسيعة، ونحن بإيماننا شددنا أزره لننال المراكز الرفيعة في بلاطه.

فرأينا أنفسنا أمراء نعامل هؤلاء الرومانيين بما عاملونا به. وقد تكلّم يسوع كثيراً عن مملكته، حتى اعتقدت أنّه اختارني قائداً لمركباته، ورئيساً لجنده، ولذلك تبعت خطواته برضى وطمأنينة.

بيد أنّني وجدت أخيراً أنّه لم يطلب مملكة، ولم يقصد أن يحررنا من الرومانيين، لأن مملكته لم تكن سوى مملكة القلب.

وكنت أسمعه يتكلم عن المحبة والرحمة والإحسان، وكانت نساء الشوارع تصغي إليه بلهفة وفرح شديد، أما أنا فقد تمرمرت روحي وتحجر قلبي.

فإن ملك اليهودية الذي وعدت به نفسي تحوّل فجأة إلى ضارب على القيثارة ليسكّن حدّة أفكار الهائمين والمتشردين.

فقد أحببته كما أحبّه غيري من أبناء عشيرتي، ورأيت فيه رجاء وعتقاً من نير الغرباء. ولكنه عندما لم يتلفظ بكلمة ولم يحرك يداً لتحريرنا من ذلك النير، وعندما تطرّف فأعطى ما لقيصر لقيصر، حينئذ ملأ اليأس زوايا قلبي وتبدّدت جميع آمالي. فقلت في سري: إن من يقتل آمالي سيُقتل، لأن آمالي هي أثمنُ من حياة أي رجل كان.

ثم صرف بأسنانه، حتى رأسه. وعندما تكلم ثانية قال: قد أسلمته. وقد صلبوه في هذا اليوم.. ولكن عندما مات على الصليب مات ملكاً. فقد مات في العاصفة كما يموت المنقذون وكما يموت العظماء الذين يعيشون فوق الأكفان والحجارة.

وفي كل وقت موته كان ممتلئاً بالعطف واللطف، وكان قلبه يفيض رحمة. فقد أشفق عليّ وأنا الذي سلمته!.

فقلت: قد أخطأت يا يهوذا خطأً فظيعاً.

فأجاب يهوذا: قد مات ملكاً، فلماذا لم يعش ملكاً؟

فقلت أيضاً: وقد ارتكبت جريمة هائلة.

فجلس هنالك، على ذلك المقعد، وكان صامتاً كالصخرة.

أما أنا فكنت أتمشى جيئة وذهوباً مثقلاً بالحزن في الغرفة، ثم قلت له ثالثة: وقد اقترفت خطيئة عظيمة.

ولكن يهوذا لم يقل كلمة، بل ظلّ صامتاً كالأرض.

وبعد هنيهة وقف ونظر في وجهي فبدا لي أطول مما كان.

عندما تكلم كان صوته كالسفينة المتحطمة، وقال: لم تكن الخطيئة في قلبي. وفي هذه الليلة سأمضي وأطلب ملكوته وسأقف في حضرته وألتمس صفحه.

فهو قد مات ملكاً أما أنا فسأموت كخائن. ولكن قلبي يحدّثني بأنّه سيغفر لي. وبعد أن قال هذا لفّ جسده بعباءته جيداً وقال: حسناً فعلت بمجيئي إليك في هذه الليلة. وإن كنت قد عملت على إزعاجك فهل لك أن تغفر لي أيضاً؟

قل لأولادك وأولاد أولادك: إن يهوذا الاسخريوطي أسلم يسوع الناصري إلى أعدائه لاعتقاده أنّ يسوع كان عدوّاً لأمته.

وقل أيضاً إن يهوذا في نفس اليوم الذي ارتكب فيه هذه الخطيئة العظمى تبع الملك إلى درجات عرشه ليسلم نفسه للمحاكمة.

فسأخبره أن دمي أيضاً مشوق للتراب، وروحي المخلعة تنشد الحرية.

ثم أمال يهوذا رأسه وأسنده إلى الحائط وصرخ قائلاً: أيها الرب الذي لا ينطق أحد باسمه حتى تقبض أصابع الموت على شفتيه، لماذا حرقتني بنار لا نور فيها؟

لماذا أعطيت الجليليّ شوقاً لأرض غير معروفة، وأثقلت كاهلي برغبة لا تتعدّى البيت والموقدة؟ ومن هو هذا الرجل يهوذا الملطخة يداه بالدم؟

أعضدني لأطرده عني، ثوباً بالياً ومتاعاً رثّاً.

ساعدني لأفعل هذا في هذه الليلة، ودعني أقف ثانية خارج هذه الجدران.

قد سئمت هذه الحرية المقصوصة الجناح، وأحب سجناً أعظم من هذا.

أحب أن أجري كجدول من الدموع إلى البحر المر. أحب أن أكون رجلاً يتمتّع برحمتك من أن أكون رجلاً يقرع على بوابة قلبه.

هكذا تكلم يهوذا، ثم فتح الباب وخرج إلى العاصفة ثانية.

وبعد ثلاثة أيام زرت أورشليم وسمعت بكل ما حدث فيها. وهنالك عرفت أيضاً أن يهوذا رمى نفسه من قنّة الصخرة العالية.

قد فكرت كثيراً منذ ذلك اليوم، وأنا أفهم سر يهوذا. فقد كمّل حياته الصغيرة، التي تحركت كالضباب فوق هذه الأرض

المستعبّدة من الرومانيين، في حين أن النبي العظيم كان يصعد في الأعالي.

فالرجل الأول تاقت نفسه إلى مملكة يكون هو فيها أميراً.

أما الرجل الثاني فقد أراد مملكة يكون فيها جميع الناس أمراء.

سركيس الراعي اليوناني
الشيخ الملقب بالمجنون
يسوع والإله بان

رأيت في حلم يسوع الناصري وإلهي (بان) جالسين معاً في قلب الغابة.

وكان كل منهما يضحك من خطاب رفيقه، وكان الجدول الجاري أمامهما يضحك معهما، ولكن ضحك يسوع كان أكثر بهجة. وقد تحدثا طويلاً.

فتكلم (بان) عن الأرض وأسرارها، وعن إخوته ذوي الحوافر وأخواته ذوات القرون، وعن الأحلام. وتكلّم عن الجذور وسكونها، وعن العصارة التي تستيقظ وتنهض مترنمة في الصيف.

وتكلّم يسوع عن الأغصان الصغيرة في الغابة، وعن الزهور والأثمار، وعن البذور التي ستحملها في فصل لم يأت بعد.

وتكلم عن الطيور في الفضاء وتغريدها في العالم العلوي.

وأخبرنا إلهنا عن الأيائل البيضاء في الصحراء ترعاها عينا القدير.

وقد سرّ (بان) بحديث الإله الجديد وارتعشت مشامّة غبطة.

وفي نفس الحلم رأيت الصمت مخيماً على بان ويسوع وقد

جلسا صامتين في سكينة الظلال الخضراء.

ثم أخذ بان زمّارته وزمّر ليسوع.

وكانت الأشجار تهتزّ والخنشار يرتعش، فتولاني خوف شديد.

فقال يسوع: أيها الأخ الصالح، قد جمعت معابر الأحراج وقنن الصخور في زمّارتك.

فأعطى بان الزمّارة ليسوع وقال: زمّر أنت الآن، فقد جاءت نوبتك.

فقال يسوع: إن القصب في هذه الزمارة كبير على فمي، فاسمح لي أن أزمر في هذا المزمار.

فأخذ مزماره وشرع ينفخ فيه.

فسمعت وقع المطر في الأوراق، وترنيم الجداول بين التلال، وسقوط الثلج على رأس الجبل.

نبض قلبي، الذي اتخذ ضربه من الريح، عاد ثانية إلى الريح، وتراجعت جميع أمواج أمسي إلى شاطئي، فصرت ثانية سركيس الراعي، وتحوّل مزمار يسوع إلى نايات رعاة لا عديد لها يدعون قطعاناً لا تعد ولا تحصى.

فقال بان ليسوع: أنت أقرب في شبابك إلى الموسيقى مني في شيخوختي. وفي سكوني قبل هذا اليوم بوقت طويل قد سمعت أنشودتك وذكر اسمك.

إن صوت اسمك صالح عذب، وهو سينهض بقوّة مع العصارة إلى الأغصان، وسيركض بعزم مع الحوافر بين التلال.

وهو ليس بالاسم الغريب عليّ، مع أن أبي لم يدعني بذلك الاسم، إن مزمارك قد أعاده إلى ذاكرتي.

والآن هلمّ بنا نزمّر معاً.

فشرعا يزمران معاً.

وقد ضربت موسيقاهما السماء والأرض، فوقع الرعب على جميع الأحياء.

فسمعت عجيج الحيوانات في الغابة، وسمعت صراخ المستوحشين من الناس وشكوى الذين يتوقون إلى ما لا يعرفون.

وسمعت تنهدات العذراء على حبيبها، ولهاث الصياد وراء صيده.

ثم رجع السلام إلى موسيقاهم، فترنمت السماء والأرض معاً.

كل هذا رأيته في حلمي، وكل هذا سمعته ووعيته.

حنانيا رئيس الكهنة
كان يسوع من السفلة

كـان مـن السـفلة، لصّاً ودجّالاً وضارباً بـالبوق لنفسـه، ولـم يحسن إلا في عيون المدنسين والمعدمين، ولذلك لم يسر إلا في مسالك الملطخين والفاسدين.

وقد سخر منّا ومن شرائعنا، وهزأ من شرفنا وضحك من وقارنا. وتمادى في غوايته فقال إنّه يهدم الهيكل ويدنّس الأماكن المقدسة. إنّه لم يعرف عيباً. ولأجل هذا قضي عليه بموت معيب.

كان رجلاً من جليل الأمم، وأجنبيّاً من تلك البلاد الشمالية التي ما زال أدونيس وعشتروت ينازعان إسرائيل وإله إسرائيل السيادة عليها.

إن ذلك الذي كان يتلعثم لسانه وهو ينطق بخطب أنبيائنا صار أخيراً مرتفع الصوت وهو يتكلم بلغة النغول الأدنياء والسفهاء من أتباعه.

فهل كان في طوقي إلا أن أحكم عليه بالموت؟

ألست أنا حارس الهيكل؟ ألست أنا حافظ الشريعة؟ وهل كنت قادراً أن أدير له ظهري قائلاً بكل طمأنينة: إنّه مجنون بين المجانين. دعه وشأنه حتى يقضي في هذيانه، لأن المجانين والحمقى والذين تقطنهم الشياطين لا يقدّمون ولا يؤخرون في طريق إسرائيل؟

هل كنت قادراً أن أصم أذني عن سماع صوته عندما دعانا كذابين ومرائين وذئاباً، وحيات وأولاد أفاعي؟

إلا أنّني لم أقدر أن أصم أذني عن سماعه، لأنّه لم يكن مجنوناً، فقد كان مجذوباً بغرور نفسه، فحمله هذا الغرور الجنوني على تهديدنا ومناهدتنا جميعاً.

لأجل هذا أمرت بصلبه، ليكون صلبه ناصحاً ونذيراً لجميع الذين ختموا أنفسهم بخاتمه اللعين.

إنّني أعرف جيداً أن كثيرين أنحوا عليّ باللائمة على هذا العمل وفريق منهم من أعضاء السنهدريم أنفسهم، ولكنني أدركت آنئذٍ كما أدرك الآن أن رجلاً واحداً يجب أن يموت عن الأمة قبل أن يضلل الأمة بأسرها.

قد غلب اليهودية عدوّ خارجي، ولكنني سأرى ألا يقهر اليهودية عدو داخلي.

فما من رجل من الشمال الملعون يستطيع أن يصل إلى قدس أقداسنا أو يمر بظله على تابوت العهد المقدس.

امرأة من جارات مريم
مرثاة

في اليوم الأربعين بعد موته جاءت جميع جارات مريم إلى بيتها ليعزينها ينشدن مراثيهنّ.

وقد أنشدت واحدة منهنّ هذه المرثاة:

إلى أين يا ربيعي، إلى أين؟

وإلى أي فضاء آخر يتصاعد عبيرك؟

وفي أي حقل آخر ستمشي؟

وإلى أية سماء سترفع رأسك لتتكلم بما في قلبك؟

ستقفز هذه الأودية. ولن يكون لنا غير الحقول الجرداء القفراء.

إن جميع الأشياء الخضراء ستحترق في الشمس، ولن تنتج بساتيننا سوى التفاح الحامض، وكرومنا لن تحمل غير العنب المر.

سنعطش لخمرتك، وستحنّ مشامّنا لعطرك.



إلى أين يا زهرة ربيعنا الأول، إلى أين؟

أفلن ترجع إلينا؟

أفلن يزورنا ياسمينك، ولن ينبت بخور مريم روحك في جوانب طرقها ليخبرنا أنّنا نحن أيضاً لنا جذور عميقة في الأرض، وأن أنفاسنا غير المتقطعة ستظلّ صاعدة إلى السماء أبداً؟



إلى أين يا يسوع، إلى أين يا ابن جارتي مريم، ورفيق ابني الحبيب؟

إلى أين يا ربيعنا الأول، وإلى أي الحقول الأخرى تسير؟

هل ترجع إلينا ثانية؟

وهل تزور، في مدّ محبتك، الشواطئ القيمة لأحلامنا؟

آحاز الجسيم صاحب الفندق
العشاء قبل الفصح

إنّني أذكر جيداً المرة الأخيرة التي رأيت فيها يسوع الناصري. فقد جاءني يهوذا عند ظهر ذلك الخميس، وطلب إليّ أن أعدّ عشاءً ليسوع وأصدقائه.

وقد أعطاني قطعتين من الفضة وقال لي: اشترِ كل ما تراه لازماً للعشاء.

وبعد أن تركنا قالت لي زوجتي: إن هذا بالحقيقة لشرف عظيم، لأن يسوع صار نبيّاً عظيماً، وقد صنع آيات وعجائب كثيرة.

وعند الشفق جاء يسوع وأتباعه، وجلسوا في العلية حول المائدة ولكنهم صمتوا كأن على رؤوسهم الطير.

وقد جاؤوا في العام الماضي وفي العام الذي سبقه، ولكنهم كانوا في ذلك الوقت فرحين، فكسروا الخبز وشربوا الخمر وترنّموا بترانيمنا القديمة، ولم ينقطع يسوع عن محادثتهم حتى نصف الليل.

وبعد ذلك كانوا يتركونه وحده في العلية ويذهبون ليناموا في غرف أخرى، لأنّه كان يرغب في الانفراد بعد نصف الليل.

وكـان يظلّ مستيقظاً الليـل بطولـه، لأنّنـي كنـت أسـمع وقـع خطواته وأنا مضطجع في فراشي.

ولكن في هذه المرة الأخيرة لم يكن سعيداً لا هو ولا أصدقاؤه.

وكانت زوجتي قد أعدت سمكاً من البحيرة ودراريج من حوران حشتها بالأرز وحبوب الرمان، وأحضرت أنا لهم جرة من خمرة سروتي.

ثم تركتهم لأنّني شعرت بأنهم راغبون في أن يكونوا وحدهم. وقد أقاموا في العليّة حتى خيّم الظلام، ثم انحدروا جميعهم معاً من العلية، ولكن يسوع وقف هنيهة عند أسفل السلم فنظر إليّ وإلى زوجتي، ثم وضع يده على رأس ابنتي وقال: ليلتكم سعيدة جميعاً. إنّنا سنأتي ثانية إلى عليتكم، ولكننا لن نترككم في مثل هذه الساعة الباكرة، وسنبقى معكم حتى تشرق الشمس فوق الأفق.

قريباً نعود إليكم ونطلب منكم مزيداً من الخبز والخمر، فقد أحسنتم ضيافتنا وسنذكركم إذا أتينا إلى بيتنا وجلسنا إلى مائدتنا.

فقلت له: قدكان لي الشرف في خدمتك يا سيدي. إن بقية أصحاب الفنادق يحسدونني على زيارتكم، فأضحك منهم مفتخراً في ساحة المدينة. وفي بعض المرات أحوّل وجهي عنهم.

فقال: يجب أن يفتخر جميع أصحاب الفنادق بالخدمة، لأن الذي يعطي الخبز والخمر هو أخ لذلك الذي يحصد ويجمع أغمار الحبوب ويحملها إلى البيدر، وأخ لمن يعصر الخمرة في المعصرة. وأنتم

جميعكم كرماء، لأنّكم تعطون من خيركم حتى لمن يأتي إليكم ولا شيء لديه سوى جوعه وعطشه.

حينئذ التفت إلى يهوذا الاسخريوطي الذي كان يحمل كيس الجماعة وقال له: اعطني شاقلين.

فأعطاه يهوذا شاقلين وقال له: هذه آخر قطعة من الفضة في كيسي. فنظر إليه يسوع وقال له: قريباً جدّاً سيمتلئ كيسك فضة.

ثم وضع الشاقلين في يدي وقال: اشترِ بهذا المال منطقة حريرية لابنتك ومُرها أن تلبسها في عيد الفصح تذكاراً لي.

قال هذا ونظر إلى وجه ابنتي ثانية، وانحنى وقبّل جبينها، ثم قال ثانية: ليلتكم سعيدة جميعاً. وسار في طريقه.

يقولون لي إن ما قاله لنا قد دوّنه أحد أصدقائه على رقّ عنده، ولكني أعدته على مسامعكم الآن كما سمعته من شفتيه.

إنّني لن أنسى ما حييت رنّة صوته وهو يقول هذه الكلمات: ليلتكم سعيدة جميعاً.

فإذا أردتم أن تعرفوا أكثر من هذا عن النبيّ الجديد فاسألوا ابنتي، فهي امرأة الآن ولكنها لم تبدل تذكارات صباها بمال الأرض كلها، وهي أكثر استعداداً للكلام منّي.

باراباس
كلمات يسوع الأخيرة

قد أطلقوني واختاروه، أما هو فنهض وأما أنا فسقطت. وقد قبضوا عليه ضحية وتقدمة للفصح.

قد تحررتُ من قيودي ومشيتُ مع الجمع وراءه، ولكنني كنت رجلاً حيّاً يسير إلى قبره.

كان الأليق بي أن أهرب إلى الصحراء حيث يحترق العار بأشعة الشمس.

ولكنني مشيت مع الذين اختاروه ليحمل جريمتي وعندما سمّروه على الصليب كنت واقفاً هناك.

وقد رأيت وسمعت، ولكن ما يدرك فيّ كان خارج جسدي.

فقال له اللصّ الذي صُلب عن يمينه: وأنت تنزف دماؤك معي يا يسوع الناصري؟

فأجاب يسوع وقال: إنّني لولا هذا المسمار المغروس في يدي لكنت أمدّ يميني وأصافحك.

إنّنا قد صُلبنا معاً، ويا ليتهم رفعوا صليبك ليكون قريباً من صليبي. ثم نظر إلى الأرض وتأمّل وجه أمه ووجه شاب كان واقفاً بجانبها.

وقال: يا أمي، هوذا ابنك واقف بجانبك.

يا امرأة، هوذا الرجل الذي سيحمل نقط دمي إلى بلاد الشمال.

وعندما سمع نواح نساء الجليل قال: تأمّلوا فهنّ يبكين وأنا أعطش.

قد رفعوني كثيراً فلا أستطيع أن أصل إلى دموعهنّ.

إنّني لن أشرب الخلّ والمرارة لأطفئ لهيب هذا العطش.

ثم انفتحت عيناه فنظر نحو السماء وقال: يا أبتاه، لماذا تركتنا؟

وبعد أن سكت هنيهة قال والرحمة تملأ صوته: يا أبتاه أغفر لهم، لأنّهم لا يدرون ما يفعلون.

وعندما تلفّظ بهذه الكلمات ظهر لي أنّني أرى أمام عيني جميع الناس ساجدين أمام الله يطلبون مغفرة عن صلب هذا الرجل الواحد.

ثم صرخ ثانية بصوت عظيم: يا أبتاه، في يديك أستودع روحي.

وأخيراً رفع رأسه وقال: قد انتهى ولكن على هذه التلة فقط، وأغمض عينيه.

فمزقت سهام البرق وجه السماء الأسود ، وحدث رعد عظيم.

إنّني أعرف اليوم أن الذين قتلوه عوضاً عنّي قد عملوا على عذابي الذي لن ينتهي.

لأن صلبه لم يأخذ سوى ساعة واحدة.

أما أنا فسأظلّ مصلوباً إلى نهاية أيامي.

كلوديوس قائد المئة الروماني
يسوع القائد العظيم

بعد أن قبضوا عليه دفعوه إليّ. وكان بيلاطس البنطي قد أمرني أن أوقفه حتى الصباح التالي.

قاده جنودي أسيراً، وكان طائعاً لهم.

وعند انتصاف الليل تركت زوجتي وأولادي وسرت لزيارة دار الأسلحة. وكانت لي عادة أن أذهب وأفتقد رجال حاميتي في أورشليم لأرى أن كل شيء على ما يرام، وفي تلك الليلة زرت دار الأسلحة لأنّه كان سجيناً فيها.

وكان جنودي وبعض من فتيان اليهود يتلهون بالهزء به، فإذا بهم نزعوا عنه ثوبه ووضعوا إكليلاً من شوك السنة الماضية على رأسه، وأجلسوه أمام عمود، وكانوا يرقصون ويصرخون حوله.

وأعطوه قصبة ليمسكها بيده.

وإذ دخلت عليهم صرخ أحدهم وقال: انظر ملك اليهود أيها القائد.

فوقفتُ أمامه ونظرتُ إليه. وللحال شعرت بخجل عظيم. إنّني لم أدرِ لذلك سبباً.

فقد حاربت في غاليا وفي إسبانيا، وخضت غمرات الموت مع رجالي، ولكنني لم أعرف الخوف، وقطّ لم أكن جباناً.

ولكنني عندما وقفت أمام ذلك الرجل ونظر إليّ هلع قلبي وفارقتني شجاعتي، وشعرت بأن شفتيّ قد ختمتا ختماً محكماً فلم اقدر أن أنبس بكلمة.

فتركت دار الأسلحة من فوري.

حدث هذا منذ ثلاثين سنة، وأولادي الذين كانوا أطفالاً في ذلك الوقت هم رجال الآن وهم يخدمون القيصر وروما.

ولكنني كلما أردت نصحهم أحدّثهم عن ذلك الرجل، الذي كان وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام الموت يلتمس الرحمة والغفران لقاتليه.

ها أنا اليوم شيخ طاعن في السنّ، وقد عشت أعوامي مكتفياً من كلّ شيء. ولكنني أعتقد أنّه لم يكن لبومبي ولا لقيصر من روح القيادة العظيمة ما كان لهذا الرجل الجليليّ.

لأنه منذ موته، الذي جرى بدون مقاومة، قد نهض من الأرض جيش جبّار ليحارب في سبيله.. وهم يخدمونه، مع أنه ميت، بما لم يحلم، لا بومبي ولا قيصر، بالحصول عليه من جنودهما في حياتهما.

يعقوب أخو الرب
العشاء الأخير

ألفَ مرة قد زارتني ذكرى تلك الليلة. وأعرف الآن أنها ستزورني ألف مرة أخرى.

ستنسى الأرض الأثلام المشقوقة في صدرها، وستنسى المرأة الألم والفرح اللذين في ولادة الأولاد، أما أنا فإنّني لن أنسى تلك الليلة ما حييت.

كنّا في المساء خارج أسوار أورشليم، فقال يسوع: لنذهب الآن إلى المدينة لنتعشّى في الفندق.

وكان الظلام قد خيّم عندما وصلنا إلى الفندق، وكنّا جياعاً.

فحيّانا صاحب الفندق وصعد بنا إلى عليّة.

فطلب إلينا يسوع أن نجلس حول المائدة، أما هو فظلّ واقفاً يحدّق بعينيه إلينا.

فخاطب صاحب الفندق وقال له: احضر لي طستاً وإبريقاً ممتلئاً ماء، ومنشفة.

ثم نظر إلينا أيضاً وقال بلطف: اخلعوا نعالكم.

فلم نفهم، ولكننا عملاً بأمره خلعنا نعالنا.

فأحضر صاحب الفندق الطست والإبريق، فقال يسوع: سأغسل أرجلكم الآن، لأنّه يجدر بي أن أحرر أقدامكم من غبار الطريق القديمة وأمنحها حرية الطريق الجديدة.

فتولانا جميعاً منتهى الدهش والخجل.

فوقف سمعان بطرس وقال: كيف أقدر أن أزعج معلمي وربي ليغسل قدمّي؟

فأجاب يسوع: إنّني أغسل رجليك لكي تتذكر أن الذي يخدم الناس سيكون أعظم من جميع الناس.

ثم نظر إلى كل واحد منّا وقال: إن ابن الإنسان الذي اختاركم إخوةً له، ذلك الذي دُهنت قدماه في الأمس بطيوب العربيّة ونُشّفت بشعر امرأة، يرغب الآن في أن يغسل أرجلكم.

فأخذ الطست والإبريق وركع وغسل أرجلنا مبتدئاً بيهوذا الاسخريوطيّ.

ثم جلس معنا إلى المائدة؛ وكان وجهه كالفجر المشرق على معركة بعد ليلة كفاح سالت فيها الدماء.

فجاء صاحب الفندق مع زوجته يحملان الطعام والخمر.

ومع أنّني كنت جائعاً قبل أن ركع يسوع على قدمي فإنّني

أضعتُ كلّ شهية للطعام، وكان في حلقي لهيب مقدس لم أشأ أن أطفئه بالخمرة.

وأخذ يسوع رغيفاً من الخبز وأعطانا قائلاً: قد لا نكسر الخبز معاً فيما بعد، فلنأكل هذه الكسرة تذكاراً لأيامنا في الجليل.

ثم صبّ خمراً من الجرّة في كأس وشرب، وأعطانا قائلاً: اشربوا هذه الخمرة تذكاراً للعطش الذي عرفناه معاً، واشربوها أيضاً على رجاء العصر الجديد، فإذا ذهبت ولم أكن معكم فيما بعد، فكلما اجتمعتم هنا أو في أي مكان آخر اكسروا الخبز واسكبوا الخمرة وكلوا واشربوا كما تفعلون الآن ثم انظروا حواليكم فعلّكم تجدونني جالساً معكم إلى المائدة.

وبعد أن قال هذا شرع يوزع علينا قطعاً من السمك والدُرَّاج كما يطعم الطير فراخه.

ومع أنّنا لم نأكل إلاّ القليل فقد اكتفينا، ولم نشرب سوى نقطة صغيرة، لأنّنا شعرنا بأن الكأس التي أمامنا كانت فضاءً بين هذه الأرض وأرض أخرى.

فقال يسوع: فلننهض قبل أن نترك هذه المائدة، ولنترنم بأناشيد الفرح التي ترنّمنا بها في الجليل.

فنهضنا وأنشدنا بصوت واحد، ولكن صوته كان أرفع من أصواتنا، وكانت في كلّ كلمة من كلماته رنَّة خاصة.

فنظر إلى وجوهنا كلاً بمفرده وقال: أودعكم الآن، لنذهب إلى ما وراء هذه الجدران. لنذهب إلى الجثمانيّة.

فقال يوحنا بن زبدى: يا معلم، لماذا تودعنا في هذه الليلة؟

فأجاب يسوع وقال: لا تضطرب قلوبكم، فأنا لا أترككم إلاّ لأعدّ لكم مكاناً في بيت أبي. ولكن إذا احتجتم إليّ فإنّني أرجع إليكم، وحيث دعوتموني أسمعكم، وحيثما طلبتني أرواحكم فهناك أكون معكم.

ولا تنسوا أن العطش يقود إلى المعصرة، والجوع إلى وليمة العرس.

إن حنينكم يحملكم إلى ابن الإنسان. والحنين هو ينبوع الوجد المقدّس والطريق المؤدية إلى الأب.

فقال له يوحنا ثانية: إذا كنت بالحقيقة ستتركنا فكيف نهتدي إلى مسراتنا؟ ولماذا تتكلم عن الانفصال؟

فقال يسوع: إن الظبي المطارّد يعرف سهمَ الصياد قبل أن يشعر به في صدره، والنهر يعرف البحر قبل أن يصل إلى شاطئه، وابن الإنسان قد سافر في طرائق الناس.

وقبل أن تخرج شجرة اللوز براعمها في الشمس ستطلب جذور شجرتي قلب حقل آخر.

فقال سمعان بطرس: يا معلم لا تتركنا الآن، ولا تحرمنا مسرّة حضورك بيننا، فإنّنا نمضي حيث تمضي ونقيم حين تكون مقيماً.

فوضع يسوع يده على كتف سمعان بطرس، وتبسّم وقال له:

من يدري إذا كنت لا تتركني قبل انتهاء هذه الليلة، وتتركني قبل أن أتركك؟

ثم قال فجأة: لنمض من هنا.

فترك الفندق وتبعناه، ولكن عندما وصلنا إلى بوابة المدينة لم نجد يهوذا الاسخريوطي معنا، فعبرنا وادي جهنم، وكان يسوع يتقدمنا ونحن نمشي بعضنا بجانب بعض.

وإذ بلغنا بستان الزيتون وقف والتفت إلينا وقال: استريحوا هنا ساعة.

وكان المساء بارداً مع أن الربيع كان في انتصافه، وكانت أشجار التوت قد أورقت وأشجار التفاح في كمال زهرها، وكانت البساتين جميلة.

فطلب كل واحد منّا جذع شجرةٍ واتكأنا. أما أنا فاضطجعت تحت صنوبرة ملتفّاً بردائي.

أما يسوع فتركنا ومشى وحيداً في بستان الزيتون، وكنت أراقبه وجميع الرفاق الآخرين نيام.

فكان تارة يقف فجأة بهدوء عجيب، ثم لا يلبث أن يسير في البستان ذهاباً وإياباً. وقد فعل هذا غير مرة.

ثم رأيته يرفع وجهه نحو السماء ويبسط ذراعيه إلى الشرق والغرب، فقد قال مرة: إن السماء والأرض والجحيم نفسه كلها من الإنسان. فتذكرت قوله، وأدركت أن الذي كان يتخطر أمامي في بستان الزيتون هو السماء صارت إنساناً، وفكرت أن رحم الأرض لا هي بالبداءة ولا بالنهاية، بل هي بالأحرى مركبة ومحطة، ولحظة عجب ودهشة. وقد رأيت الجحيم أيضاً في الوادي المعروف باسم جهنم، الذي كان قائماً آنئذٍ بين يسوع والمدينة المقدسة.

وفيما كان واقفاً هنالك وأنا ملتف بثوبي على الأرض، سمعته يتكلم، ولكنه لم يكن يتكلم معنا. ثلاث مرات سمعته يتلفظ بكلمة الأب. وهذا كان كل ما سمعته.

وبعد هنيهة سقطت ذراعاه، فوقف هادئاً كأنّه سروة بين عينيّ وبين السماء.

أخيراً رجع إلينا وقال لنا: استيقظوا وانهضوا، فقد دنت ساعتي، وقد خرج العالم عليّ مسلحاً للمعركة.

وبعد قليل قال: منذ هنيهة سمعت صوت أبي، فإذا لم أنظركم ثانية فتذكروا أن الغالب لا يتمتّع بالسلام حتى ينغلب.

وعندما نهضنا ودنونا منه كان وجهه كالسماء المرصعة بالنجوم فوق الصحراء.

ثم قبَّل كلّ واحد منّا في وجنتيه، وعندما قبّل وجنتي شعرت بأن في شفتيه من الحرارة نفس ما في يد الطفل المحموم.

وفيما نحن على هذا سمعنا ضجيجاً عظيماً في آخر البستان كأنّه ضجيج جمع غفير، وعندما قرب منّا رأينا جماعة من الرجال يتقدمون بمصابيح وعصي، وكانوا قادمين بسرعة.

وعندما وصلوا إلى سياج البستان تركنا يسوع وذهب ليستقبلهم، وكان يهوذا الاسخريوطي يقودهم.

وكان الجمع يتألف من جنود رومانيين بسيوف وحراب ورجال من أورشليم بنبابيت وفؤوس.

فتقدم يهوذا إلى يسوع وقبّله، ثم قال للرجال المسلحين: هذا هو الرجل.

فقال يسوع ليهوذا: قد صبرت علي يا يهوذا، لأن هذا كان ممكناً لك في الأمس.

ثم التفت إلى الرجال المسلحين وقال: خذوني الآن، ولكن ينبغي أن يكون قفصكم كبيراً ليسع هذه الأجنحة.

فهجموا وقبضوا عليه، وكانوا يصيحون ويضجون.

أمانحن فقد حملنا الخوف على الهرب للخلاص منهم.

فركضتُ وحدي بين أشجار الزيتون ولم أفكر في أحد، لأنني لم أسمع في تلك الساعة صوتاً غير صوت مخاوفي.

وفي أثناء الساعات القليلة التي تبقّت من تلك الليلة كنت هارباً متستراً؛ وعند الصباح وجدت نفسي في قرية قريبة من أريحا.

فلماذا تركته؟ إنّني لا أدري، ولكنني حزين لأنّني تركته، فقد برهنت على جبانتي بهربي من أعدائه.

وإذ غمرني عار خجلي وندمي رجعت إلى أورشليم فإذا هو سجين ولا يُسمح لأحد من أصدقائه بأن يكلمه.

ثم صلبوه، فصنع دمه تراباً جديداً للأرض.

أما أنا فما زلت حيّاً، ولكنني أعيش متغذياً بقرص العسل الذي جنتهُ حياته.

سمعان القيرواني
كيف حملت صليبه

كنت أسير في طريقي إلى الحقول عندما رأيته حاملاً صليبه والجماهير تتبعه.

فمشيت أنا أيضاً في جانبه.

وقد أوقفه ثقل حمله غير مرة، لأن قوته كانت قد نفذت.

فتقدم إليّ أحد جنود الرومان وقال: تقدم، فأنت قويّ العضلات متين البناء، فاحمل صليب هذا الرجل.

وعندما سمعتً هذه الكلمات رقص قلبي طرباً وفرحت بهذه الفرصة، فحملت صليبه شاكراً.

وكان الصليب ثقيلاً، لأنّهم صنعوه من شجر الحور المشرب بأمطار الشتاء.

فنظر يسوع إليّ، وكان عرق جبينه ينسكب جارياً على لحيته.

ثم نظر إليّ ثانية وقال: وأنت أيضاً تشرب هذه الكأس؟ إنك بالحقيقة ستمتصّ حافتها معي إلى منتهى الدهور.

وإذ قال هذا وضع يده على كتفي الحرة، وهكذا مشينا معاً إلى تلة الجمجمة.

ولكنني بعد أن وضع يده على كتفي لم أشعر يثقل الصليب قط، بل كنت أشعر بيده فقط، وكانت كجناح الطير على كتفي.

ثم بلغنا إلى رأس التلة، حيث أعدّوا كلّ شيء ليصلبوه.

حينئذٍ شعرت بثقل الصليب.

بيد أنّه لم يتفوّه بكلمة عندما غرزوا المسامير في يديه، ورجليه، ولم تخرج من فمه صرخة واحدة.

وأعضاؤه لم ترتجف تحت طرقات المطرقة.

وقد خيّل إليّ أن يديه ورجليه كانت قد ماتت وهي ترجع آنئذ إلى الحياة مستحمة بالدماء. وأما هو فكان ينشد المسامير كما ينشد الأمير صولجانه، وكان شائقاً الارتفاع إلى الأعالي.

ولم يخطر لقلبي أن يشفق عليه لأن الذهول كان يملأ كياني، وها أن الرجل الذي حملت صليبه صار لي صليباً.

فإذا قالوا لي ثانية: أحمل صليب هذا الرجل، فإنّي لأحملنّه بملء الرضى حتى تؤدي بي طريقي إلى قبري.

ولكنني ألتمس منه آنئذ أن يضع يده على كتفي.

قد حدث هذا منذ أعوام عديدة، ولكنني كلما تبعت الثلم في حقلي، كلما غالبني النعاس قبل النوم، أفكر بغير انقطاع في ذلك الرجل الحبيب، أشعر بيده المجنحة، هنا على كتفي اليسرى.

سيبورية أم يهوذا
نصف ابنها وأطواره

كان ابني رجلاً فاضلاً مستقيماً، وكان لطيفاً رقيقاً في معاملتي، وقد أحب أهله ومواطنيه، وأبغض أعداءنا الرومانيين الملاعين الذين يرتدون الملابس الأرجوانية مع أنّهم لا يغزلون خيطاً ولا يجلسون إلى نول، ويحصدون ويجمعون من غير أن يفلحوا أو يبذروا بذاراً.

كان ابني في السابعة عشرة فقط عندما قبضوا عليه يرمي الحامية الرومانية بنباله وهي تمرّ بكرمنا.

وفي ذلك العمر كان يحدّث أترابه من فتيان البلاد بمجد إسرائيل، وينطق أمامهم بأقوال وخطب عجيبة لم أفهمها.

وكان ابناً محبّاً، وكان وحيداً.

فقد شرب الحياة من هذين الثديين الناشفين الآن، ومشى خطواته الأولى هنا في هذا البستان، متمسكاً بهذه الأصابع التي هي اليوم كالقصبات المرتجفة.

بهاتين اليدين، اللتين كانتا آنئذٍ فتيتين طريتين كعنب لبنان، قد خبأت حذاءه الأول في منديل من الكتان كانت قد أهدته إليّ أمي. وما زلت أحتفظ به في تلك الخزانة التي بجانب النافذة.

كان بكراً لي، وعندما مشى خطواته الأولى شعرت أنا أيضاً بأني أخطو خطوتي الأولى، لأن النساء لا يسافرن إلا مقودات بأولادهنّ.

والآن يقولون لي إنّه مات منتحراً، فقد رمى نفسه من الصخرة العالية لأن ضميره وبخه على تسليمه صديقه يسوع الناصري.

إنّني أعرف أن ابني قد مات، ولكنني واثقة بأن ابني لم يسلم أحداً، لأنّه أحب أبناء جنسه ولم يبغض أحداً غير الرومانيين.

كان لابني ضالة واحدة هي مجد إسرائيل، فلم يكن في أقواله وأفعاله موضوع غير هذا الموضوع.

وعندما تعرّف إلى يسوع على الطريق تركني ليتبعه.

أما أنا فقد عرفت في أعماق قلبي أنّه يخطئ إذا تبع أي إنسان لأنّه خلق ليكون متبوعاً لا تابعاً.

وقبل أن يودّعني أخبرته بخطئه فلم يصغ إليّ. إن أولادنا لا يصغون إلى نصائحنا، فهم أشبه بمدّ البحر في اليوم لا يلتمسون النصح من مدّ الأمس.

أرجو من فضلكم ألا تسألوني ثانية عن ابني.

فقد أحببته وسأحبه إلى الأبد.

ولو كانت المحبة في اللحم لكنت أحرقه بالحديد الحامي وأحظى بسلامتي، ولكنها في النفس فلا يُبلَغُ إليها.

والآن انقطع عن الكلام، فاذهبوا واسألوا أمّاً أكثر شرفاً من أم يهوذا.

اذهبوا إلى أم يسوع، فقد جاز السيف في قلبها أيضاً، وهي تخبركم عني فتفهمون.

امرأة من جبيل
مرثاة

ابكين معي يا بنات عشتروت، ويا كلّ محبّي تموز. مُرنَ قلوبكنّ وتنهض فتجري كالدم دموعاً.

لأن الذي صُنع من الذهب والعاج لم يبقَ في الوجود.

فقد هجم عليه الخنزير البري في الغابة المظلمة ومزق جسده بأنيابه.

والآن فهو يضطجع ملطخاً مع أوراق الأعوام المنصرمة، ولن يوقظ وقع خطواته البذور الهاجعة في حضن الربيع.

إن صوته لن يأتي مع الفجر إلى نافذتي، وسأعيش وحيدة أبداً.

أبكين معي يا بنات عشتروت، ويا كلّ محبّي تموز، لأن حبيبي قد أفلت منّي، ذلك الذي تكلّم كما تتكلم الأنهار، ذلك الذي كان صوته وزمارته توأمين، ذلك الذي كان فمه ألماً ملتهباً فتحوّل إلى عذوبة لذيذة، ذلك الذي كانت المرارة تتحوّل على شفتيه إلى شهد العسل.

ابكين معي يا بنات عشتروت، ويا كل محبي تموز.

بلّلن بدموعكن أغطية فراشي الحريريّة، حيث استراح حبيبي مرة في حلمي ثم ابتعد عني في يقظتي.

أستحلفكنّ يا بنات عشتروت، ويا كل محبّي تموز.

اسندن صدوركنّ وابكين وعزّينني.

لأن يسوع الناصري قد مات.

مريم المجدلية
بعد ثلاثين سنة

مرةً أقول إن يسوع بـالموت غلـب المـوت، ونـهض مـن القـبر روحـاً وقوة. وقد مشى في وحدتنا وزار بساتين وجدنا ومحبتنا.

فهو لا يضطجع هنالك في تلك الصخرة المنحوتة وراء الحجارة.

فنحـن الذيـن نحبّـه قـد رأينـاه بـهذه العيـون التـي فتـح بصيرتـها لترى، ولمسناه بهذه الأيدي التي علمها كيف تنبسط.

إنّنـي أعرفكـم أنتـم الذيـن لا تؤمنـون بـه، فقـد كنـت منكـم وأنتم كثيرون، ولكـن عددكم سيتناقص.

فـهل يجـب أن تكسـروا عودكـم وقيثـارتكم لتشـاهدوا الموسيقى فيهما؟

أو هـل يجـب أن تقطعـوا الشـجرة قبـل أن تقـدروا علـى الإيمـان بأثمارها؟

أنتم تبغضون يسوع لأن رجلاً من بلاد الشمال قال إنّه ابن الله، ولكنكم تبغضون بعضكم بعضاً لأن كل واحـد منكـم يحسـب نفسه أكبر من أن يكون أخاً للآخر.

أنتم تبغضونه لأن فريقاً قالوا إنّه ولد من عذراء، وليس من زرع رجل.

ولكنكم لا تعرفون الأمهات اللواتي يذهبن إلى القبر في عذريّتهن ولا الرجال الذين يذهبون إلى قبورهم مختنقين بعطشهم.

أنتم لا تعرفون أن الأرض زفّت إلى الشمس وأن الأرض هي التي تبعثنا إلى الجبل وإلى الصحراء.

إن هنالك خليجاً يتثاءب بين الذين يحبون يسوع والذين يبغضونه، بين الذين يؤمنون وبين الذين لا يؤمنون.

فإذا بنت الأعوام جسراً فوق هذا الخليج فحينئذ ستعرفون أن الذي عاش فينا لا يموت، وأنّه كان ابناً لله كما أنّنا نحن أيضاً أبناء الله، وأنّه قد وُلد من عذراء. كما أنّنا نحن أيضاً ولدنا من الأرض التي لا زوج لها.

غريب عجيب كيف أن الأرض لا تعطي غير المؤمنين الجذور التي ترضع من ثدييها، والأجنحة التي بها يطيرون محلقين ليشربوا ويمتلئوا من ندى فضائها.

بيد أنني أعرف ما أعرف، وفي هذا كفاية لي.

رجل من لبنان
بعد تسعة عشر قرناً

يا سيد المرنّمين.

يا سيد الكلمات التي لم ينطق بها.

سبع مرات قد وُلدتُ، وسبع مرات قد متّ بعد زيارتك المستعجلة وترحيبنا القصير.

وها أنا أحيا ثانية، متذكراً العهد الذي رفعنا فيه مَدّك يوماً واحداً وليلة واحدة بين التلال.

وبعد ذلك قد قطعت أرضاً كثيرة وبحاراً كثيرة.

وحيثما حملتني خيول الأرض أو سفن البحر كنت أرى اسمك إما صلاة ترتفع من القلب أو موضوعاً لمجادلة يقوم بها الفكر.

والناس حزبان: حزب يباركك وحزب يلعنك.

أما اللعنة فعربون الاحتجاج على الفشل.

وأما البركة فترنيمة الصياد الراجع من التلال ظافراً غانماً.

إن أصدقاءك ما زالوا في وسطنا، لتعزيتنا وعضدنا.

وأعداؤك أيضاً معنا ، لتقويتنا وتثبيت إيماننا.

وأمك معنا ، فقد رأيت نور وجهها في محيّا جميع الأمّهات. إن يدها تهزّ الأسرّة بلطف، وتطوي الأكفان بعطف.

ومريم المجدلية لا تزال في وسطنا.

تلك التي شربت خلّ الحياة ثم خمرتها.

ويهوذا ، رجل الآلام والمطامح الصغيرة ، ما زال يمشي في أرضنا ، وهو ما برح يصطاد نفسه إذا لم يجد غيرها صيداً ، طالباً ذاته الكبرى بالانتحار.

❖❖

ويوحنا ، الذي أحب شبابه الجمال، هو معنا.

وهو ينشد ألحانه وإن لم يصغ إليه أحد.

وسمعان بطرس، الذي أنكرك لتطول حياته في معرفتك، هو أيضاً جالس أمام مواقدنا.

وهو قد ينكرك ثانية قبل مرور فجر يوم آخر.

بيد أنّه أبداً مستعدّ أن يُصلب في سبيل مبادئك حاسباً نفسه غير مستحقّ لهذا الشرف.

وقيافا وحنّان ما زالا يتمتعان بنور يومهما ويحكمان على المجرم والبريء.

وهما ينامان على فراش من الريش في حين أن الذي حكما عليه تلعب السياط على ظهره.

والمرأة التي أمسكت بالزنى تمشي اليوم في شوارع مدننا وهي تجوع للخبز الذي لم يُخبز بعد، وتعيش وحيدة في بيت فارغ. وبيلاطس البنطي هنا أيضاً، فهو واقف باحترام أمامك، ولا يزال يسألك بيد أنّه لا يجرؤ أن يعرّض بمركزه أو يقاوم أمة أجنبية، وحتى الساعة لم يفرغ من غسل يديه. وحتى الساعة تحمل أورشليم الطست وروما الإبريق، وبين الاثنين تنتظر ألف ألف يد لتغسل.



يا سيد الشعراء، يا سيد ما قيل وما أنشد من الكلام.

قد بنى الناس الهياكل لسكنى اسمك.

وعلى كل قنّة رفعوا صليبك علامةً ودليلاً لأقدامهم الهائمة وليس لمسرّة روحك.

فإن مسرتك تلّة وراء أفكارهم ولذلك لا تعزيهم.

فهم يحبون أن يكرموا الرجل الذي لا يعرفونه.

وأية تعزية في رجل نظيرهم، ورأفته كرأفتهم؟

أو في إله محبته كمحبتهم، ورحمته هي رحمتهم؟

إنهم لا يكرّمون الرجل، الرجل الحيّ، الرجل الأول الذي فتح عينيه ونظر إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة.

إلاّ أنّهم لا يعرفونه ولا يريدون أن يكونوا مثله.

❖❖

إنهم يريدون أن يكونوا مجهولين، وأن يمشوا في موكب غير المعروف.

إنهم يحبُّون أن يحملوا الكآبة التي هي كآبتهم، ولذلك لا يريدون أن يجدوا تعزية في مسرتك.

وقلبهم الوجيع لا ينشد التعزية التي في أقوالك وأنشودتها.

أما آلامهم الصامتة المخلعة، فإنها تجعلهم مخلوقات مستوحشة لا يزورها أحد.

ومع أنّهم يعيشون مع أهلهم وأبناء أمتهم، فهم يعيشون خائفين ولا صديق لهم، ولكنهم يحبون أن يكونوا وحدهم.

وإذا هبّت الريح الغربيّة ينحنون إلى الشرق.

إنهم يدعونك ملكاً ويريدون أن يجلسوا في بلاطك.

ويقولون إنّك أنت ماسيّاً، بيد أنهم يريدون أن يمسحوا أنفسهم بالزيت المقدّس، إلا أنهم يريدون أن يعيشوا على حسابك.



يا سيد المترنمين،

قد كانت دموعك كشآبيب المطر في أيار (الشهر الخامس).

وكان ضحكك كأمواج البحر الأبيض.

وعندما تكلّمت عبّرت كلماتك عن همس عيد لشفاههم، في الوقت الذي كان يجب على تلك الشفاه أن تستنير بالنار.

فقد ضحكت للنخاع في عظامهم الذي لم يكن مستعدّاً للضحك.

وبكيت لعيونهم التي لم تكن تعرف الدموع بعد.

وكان صوتك أباً عطوفاً لأفكارهم وأفواههم.

بلى، وكان أمّاً رؤوماً لأقوالهم وأرواحهم.



سبع مرات قد وُلدتُ، وسبع مرات قد متّ.

وهنا أنا أحيا ثانية فأراك.

محارباً بين المحاربين، وشاعر الشعراء، وملكاً فوق جميع

الملوك.

ورجلاً نصفه عارٍ بين رفاقك من عابري السبيل.

في كل يوم يحني الأسقف رأسه عندما يتلفظ باسمك الكريم.

وفي كل يوم يقول المتسولون:

من أجل المسيح، أعطونا لنشتري بها خبزاً!

نحن نتوسل بعضنا إلى بعض، ولكننا بالحقيقة لا نتوسّل لغيرك.

فنحن كالمدّ الفائض في ربيع حاجاتنا ورغباتنا.

وعندما يأتي خريفنا نصير كالجزر الشحيح.

فسواء كنّا عظماء أو وضعاء فإن اسمك على شفاهنا.

أنت السيد غير المتناهي، للعطف غير المتناهي.



يا سيد ساعتنا المستوحشة،

هنا وهناك، بيد المهد والكفن، أرى إخوتك الصامتين،

الرجال الأحرار غير المقيدين، أبناء أمك الأرض والفضاء.

فهم كطيور السماء، وكزنابق الحقل.

وهم يحيون حياتك ويفكرون أفكارك.

ويرجّعون صدى أنشودتك.

ولكن أيديهم فارغة،

ولا يُصلبون مع الصلب العظيم، وفي هذا المهم. إن العالم يصلبهم في كل يوم، ولكن بطرائق بسيطة.

فالسماء لا تهتزّ حين صلبهم، والأرض لا تتمخض بأمواتها.

فهم يُصلبون ولا أحد يشهد عذابهم.

ويديرون وجوههم إلى اليمين وإلى الشمال.

فلا يجدون أحداً ليعدهم بمكان في ملكوته.

بيد أنهم يريدون أن يُصلبوا المرة بعد المرة،

ليكون إلهك إلهاً لهم، وأبوك أباً لهم.

يا سيد المحبة،

إن الأميرة تنتظر مجيئك في عليّتها المعطّرة،

والمرأة المتزوّجة في قفصها،

والمومس التي تنشد خبزها في شوارع عارها،

والراهبة التي لا زوج لها في صومعتها،

والعاقر أيضاً، أمام نافذتها، تتأمل صورة الغابة التي رسمها

الصقيع على زجاج النافذة، فتجدك في تناسب خطوطها، فترضعك في أحلامها وتتعزّى.



يا سيد الشعراء،

يا سيد رغباتنا الصامتة،

إن قلب العالم يخفق مع نبضات قلبك، ولكنه يحترق مع أناشيدك، إن العالم يجلس ليصغي إلى صوتك بفرح وطمأنينة، ولكنه لا ينهض عن مجلسه ليزين حافات تلالك.

والإنسان يحلم حلمك، ولكنه لا يستيقظ مع فجرك الذي هو أعظم من حلمك.

وهو يريد أن يرى ببصيرتك، ولكنه يجرّ قدميه الثقيلتين إلى عرشك.

بيد أن كثيرين أُجلسوا على العروش باسمك، وتُوّجوا بقوّتك فحولوا زيارتك الذهبية إلى تيجان لرؤوسهم وصوالجة لأيديهم.



يا سيد النور،
الذي تقطن عيناه في أصابع العميان البصيرة،

إنّك ما زلت تُحتقر ويُهزأ بك،

رجلاً يحول ضعفك وسقمك دون صيرورتك إلهاً، وإلهاً تحول إنسانيتك المتناهية دون حصولك على العبادة.

إن ما يقدمه الناس أمام عرشك من القداديس والترانيم، والأسرار والذبائح، إنّما هو لأجل ذاتهم السجينة.

فأنت وحدك ذاتهم البعيدة، وصراخهم الشاسع، وشوقهم وحنينهم.



أيها السيد، أيها القلب السماوي.

يا بطل أحلامنا الذهبية،

إنّك مازلت تتخطر أمامنا في هذا اليوم،

فلا السهام ولا الحراب تستطيع أن توقف خطواتك.

لأنّك تمشي بين جميع سهامنا وحرابنا.

إنك تتبسّم لنا من أعاليك.

ومع أنّك أصغر من جميعنا سنّاً، فأنت أبٌ لجميعنا.

أيها الشاعر،

أيها المرنّم،

أيها القلب الكبير،

ليبارك الرب اسمك،

والبطن الذي حملك،

والثدي الذي أرضعك.

وليسامحنا الرب جميعاً!!.

فهرس

